# الفصل الأول

# طبيعة الحب عند الشاعرين

# الفصل الأول

# طبيعة الحب عند الشاعرين

## حب الدوان جوان (*) والحب الثابت:

تطالعنا حالتان من حالات الحب تتصف الأولى: بالانفعال الشديد وعنف الحالة العاطفية وحدتها في لحظة ما في الزمان، بينما تتصف الثانية بالثبات والديمومة للحالة العاطفية واستمرارها عبر فترة معينة من الزمان.

تتمثل الحالة الأولى في حب الدون جوان حيث تسعى الشخصية الدونجوانية الى إقامة علاقات غرامية سريعة وقصيرة في إطارها الزمني، غايتها من ذلك البقاء بالحب على مستوى العشق العنيف والانفعال الحاد ومحاولة الابتعاد بشتى الوسائل والطراق عن شبح الاستقرار وما يتبعه من وهن في اشتداد العشق وضعف في حدته وتعريض له للرتابة والتكرار والملل[1].

ولهذا نجد الدونجوان يرفض الارتباط بعلاقة عاطفية دائمة ومستقرة، كما يرفض مؤسسة الزواج – على الرغم من كثرة وعوده بالزواج التي يطلقها في سبيل تحقيق ماربه – ولهذا اتصف الدونجوان بالتقلب السريع والتنويع المستمر والتنقل الدائم في علاقات العاطفية، كما كان عديم الوفاء-

---

(1) ينظر في الحب والحب العذري 44-45.

(*) تعود اسطورة ( دون جوان ) الى القرن السابع عشر الميلادي، لمؤلف اسباني يدعى القس جابرييل تييث التي ضمنها مسرحيته ( محتال اشبيلية ) وغاية هذه الأسطورة تجسيد الحمية والشهوة المتقدة في شخصية دون جوان المعربدة التي لاتصبر على اغتنام المتع الحسية اينما وجدها غير عابئ برادع ديني او اجتماعي.
والحق ان الشخصية الدونجوانية ترمز الى ظاهرة غريبة في كل مكان تظهر فيه على مر التاريخ اذا تمثل وسيلة تعبير نموذجية لأمال وتطلعات ترتبط باسمها.
دون جوان بين الأدب الاسباني والأدب العربي: يوسف سعد، مجلة البيان، العدد 230، 1985، الكويت.

ولكننا نجده يوزع الإيمان المغلظة بالوفاء الابدي يمينا ويسارا – ويعادي جميع القيم التي تحكم حياتنا وجميع المؤسسات التي تنظم الحياة [1].

إن الشخصية الدونجوانية قد تتجاوب مع نزعة دفينة مكبوتة في نفس كل فرد منا وتمثل هذه النزعة الانعتاق من قيود شريعة الامتداد [2] التي تغلف حياتنا، والتنازل الكامل عن كل ادعاء في تثبيت الحب ومده أفقيا [3].

وتدور علاقات الدون جوان تحت اطار من (المغامرات الغرامية) التي تهيئ للعاشقين جوا حافلا بالإثارة والمفاجآت مما يزيد من عنف نشوه الحب وقوتها حتى يحس العاشقان بأنهما قد خرجا عن نطاق الزمان وعاشا ساعة فيها من زخم الحياة وامتلائها بما يعادل مئات الساعات بل آلافها، من حياة الرتابة والهدوء والمشاغل اليومية وتفاهتها وفراغها، ولهذا يرفض الدونجوان التعقل والاعتدال والاتزان، ويسعى نحو الاندفاع والتهور ويعشق الأخطار والمغامرات[4].

ومن هنا ارتبطت شخصية العاذل بالدونجوان وكان هناك تفاعل حركي بين الشخصيتين، وذلك لما تمثله دعوة العاذل من حض ونهي وزجر ولوم لهذه الشخصية، فتتيح لنا عقد مقارنة بينه وبين الدونجوان يتضح من خلالها مدى عصيان الدونجوان المستمر للتأنيب واللوم الذي يمثله العاذل، وما يشعره بهذا العصيان من نعمة التحدي ونشوة الفوز [5].

وهناك حالة يجب عدم إغفالها في مغامرات الدونجوان وهي ان (المرأة) التي يسعى للفوز بها والتي يظفر بها في أكثر الأحيان لا تأتي إليه طائعة خاضعة مستسلمة، وإنما تأتي نتيجة ظفر حقيقي يحرزه بجهوده ومساعيه ومخططاته، ولذا نجده يبحث دائما عن المرأة المجهولة ويسعى إليها، ليس

(1) ينظر: م. ن45.
(2) ينظر: ص29من هذا المبحث.
(3) ينظر: في الحب والحب العذري 45.
(4) ينظر: في الحب والحب العذري: 37-38.
(5) ينظر: م.ن 54-55.

لكونها أجمل من سابقاتها، ولكن لما يحمله المجهول دائما من غموض وسرية وصعوبة توفر له فرصا كبيرة لتجديد نفسه وعشقه وتنويع انفعالاته، ومن هنا كانت عملية الإعداد للغزو العاطفي والتمتع بتنفيذها تشكل القسم الأهم من تجربته، فالوسيلة عنده هي بأهمية الغاية بل هي تغذي الغاية وتجعلها أشهى وأعذب مما لو كانت متوافرة من دون أي عناد او مقاومة[1]. ومع كل هذا نجد ان الدونجوان يعاني من حالة شعورية يطلق عليها (الوجدان الشقي)، تظهر من خلال إحساسه بالعجز عن إشباع نزعات الحب نحو الدوام والاستقرار عن طريق إضفاء نوع من الثبات على اللحظة العابرة التي يذوق فيها طعم النشوة القصوى في العشق، ولذا يشعر الدونجوان في بعض الأحيان بالتعب والفشل فيحن الى حياة الاستقرار والهدوء ظنا منه، في ساعات إعيائه وألمه، أنها قد توفر له نوعا من الخلاص والراحة والرضا التي يفتقدها بطبيعة نمط حياته الحركية المتنقلة [2].

ومن هنا أصبح اسم الدون جوان وشخصيته تعبيرا عن كل شاب غزل يسعى الى المغامرة الغزلية مع كل فتاة مجهولة تقابله، فضلا عن تعبيره عن النزوات الحالمة في داخل كل شخص منا.

أما الحالة الثانية فتتمثل في حالات الحب المستمرة عبر فترة زمنية طويلة والتي من المفروض ان تنتهي بالزواج. وامتداد الحب هو كيفية شعورية متجانسة لا تطرأ عليها التغيرات النوعية الا ببطء عادة وعلى نحو تراكمي ، فعلى سبيل المثال تبدأ علاقة ما بالصداقة وتتطور الى المحبة[3].

ومما يلفت النظر انه كلما استمر الحب عبر فترة معينة من الزمان وطالت مدته فقد عنفه وضعفت حدته وتناقص اشتداده باتجاه يقترب باستمرار من درجة الصفر كحد ادني، وهكذا تتحول العلاقات الغرامية الممتدة في

(1) ينظر: م.ن 56-59.
(2) ينظر: في الحب والحب العذري 59-60.
(3) ينظر: م.ن:31.

الزمان الى نوع من الصلات يطغى عليها طابع الثبات والهدوء والسكينة والألفة بين الشخصين المتحابين، فتبدأ تدريجيا بالابتعاد عن الانفعال في الحب، وتبدو كأنها علاقة شاحبة وواهنة وغير قادرة على إثارة أية اختلاجات او رعشات في أعماق الإنسان[1].

وخير ما يمثل نزعة الامتداد هذه هي العلاقات الزوجية والارتباط بأسرة بإمكانها ان توفر عوامل الطمأنينة والسكينة والاستقرار التي يسعى المتحابان الى تحقيقها، وعلى ضوء انعكاساتها الايجابية وعطاءاتها الثرة يتشكل أساس المجتمع ويستقر وتثبت تقاليده من عصر إلى عصر[2].

كانت شريعة الامتداد تسعى دائما بمساندة الأخلاق السائدة والقيم الدينية والمؤسسات الاجتماعية المهيمنة للعمل على كبت تجارب الحب ذات الطابع الدونجواني ومحاولة اعتراض جميع رغباتها والحيلولة دون تحقيقها او على الأقل حصر تفاعلاتها ضمن أضيق نطاق ممكن من اجل السيطرة على إخطارها، لان هذه التجارب في نظر المجتمع تعد خطيئة وفسادا وتهديدا لاستقراره.

ومن هنا كان العشق في مثل هذه المجتمعات يتسم بالحرمان والقمع العاطفي، ويقترن دوما بالكتمان الشديد من قبل المحبين من ناحية، وبفضول لأحد له عند الآخرين من ناحية ثانية، ولذا ظهرت شخصيات ارتبطت أسماؤها بالعشاق وهي: العذال والرقباء والوشاة والنمامون والسفراء والمساعدون من الإخوان، كما اتبع العشاق أنفسهم سلوكا معينا يتخفون وراءه: كطي السر والتعريض بالقول، والإشارة بالعين... الخ [3]

ولكن على الرغم من ذلك نجد ان هذه النزعات العاطفية الدفينة والمكبوتة في حالة تأهب دوما لتجد أول فرصة تظهر بها وتطالب بحقها

(1) ينظر:م.ن: 33.
(2) ينظر: م.ن: 36.
(3) ينظر: في الحب والحب العذري 41-42.

المشروع من الاكتفاء والإشباع، فالإنسان يرغب دائما بطبيعته الى تجارب تهزه وتشعره بان الحياة متجددة ومقبلة عليه، فيشعر بنشوة تحمله الى ذرى المرتفعات، ويتسبب هذا النزاع في داخل الشخص الى إصابته بحالات من العصاب والضيق والحصر والتطلع الخفي اللاواعي الى تجربة العشق العنيف والتي يظن انها الخلاص الوحيد الذي سينقذه من ركوده ويأخذه الى عالم خيالي كله اكتفاء ورضا وحرية وبهجة فتخرج هذه الانفعالات الدفينة لتعبر عن نفسها اما على شكل أحلام اليقظة او عن طريق الإنتاج الفني والإبداعي، فتجد بذلك متنفسا لطاقاتها الحبيسة [1].

وبعد عرضنا لهاتين الحالتين من حالات الحب، ومحاولة توضيح الجوانب المختلفة لكلتيهما نجد ان الإنسان لا يمكن ان يعيش حياة الدونجوان ومغامراته وحبه المتنقل دائما، وفي الوقت نفسه غير قادر على الاحتفاظ بحبه ثابتا ومستقرا عبر فترة زمنية طويلة من دون أي انفعال او اشتداد في هذا الحب، فالحب الحقيقي هو الحب الذي يمتد ويستمر مدة حياة المتحابين مع الحفاظ عليه متجددا في حالة اشتداد وعنف وانفعال مستمر.

يطالعنا شعر عمر بن ابي ربيعة ذلك الشعر الغزلي المليء بالعاطفة المتقدة دائماً، والمتوثبة لاقتناص أول فرصة تقابلها للفوز بمغامرة جديدة، فكل قصيدة من قصائد عمر تعد مغامرة غزلية جديدة سعى الشاعر اليها ليظفر بالنشوة التي تعده بها هذه المغامرة، فهو شاعر يعيش اللحظة الراهنة اكثر مما يعيش في احلام المستقبل، ويسعى للارتواء من اللذة الراهنة التي يحققها له تنقله الدائم من مغامرة الى اخرى، وهو يصف نفسه على لسان احدى صاحباته، بقوله:

فقالت:وصدت انت صب متيم وفيك لكل الناس مطلب عذرا

(1) ينظر: م.ن 65-68.

ملــول لمــن يهواك،مســتطرف  اخــو شــهوات تبــذل المــذق [1]

ويقول:

واذا انـــا غـــر اجـــاري دداً  اخــو لــذة كصــريع السكــر [2]

والملاحظ ان عاطفة الشاعر لا تستقر على حالة واحدة بل تتراوح بين ((الاتقاد والخمود، وتنوس بين النضرة والصفرة وتحمل في لحظات إشراقها، أروع إشراقها معنى فنائها...كما تحمل في لحظات شحوبها وفنائها لونها الوردي الجديد الذي ستتألق به)) [3]، فهي عاطفة قصيرة في مدتها ولكنها مشتدة في انفعالاتها وعنفها، ذلك انها لا تسعى الى الاستمرار بل الى الابقاء على الحب في اقصى درجات حدته وغليانه ضمن فترة زمنية محدودة، فكلما كانت اللحظات التي عاشها داخل تجربة الحب قصيرة، كانت الانفعالات مكثفة والعواطف مشدودة فعندئذ يكون الإحساس بنشوة الحب كبيرا:

علمــي بــه، والله يغفــر ذنبــه،  فيمــا بــدا لــي ذو هــوى متقســم

طرف ينازعه الى ادنى الهوى  ويبت خلة ذي الوصال الأقدم [4]

ويكون الإحساس بالزمن عكسيا في هذه الحالة، فهذه اللحظة التي عاشها هي لحظة مطلقة فهي أثمن واهم من الزمن كله لان الشاعر برفقة الحبيبة، ولكنها أطول من الشهور عند غيابها عنه:

فيالــك مــن ليــل تقاصــر طولــه  ومــا كــان ليلي قبل ذلك يقصر [5]

ويقول:

(1) شرح الديوان 108، المذق: الكذب.
(2) م.ن 176، الدد: اللهو واللعب، وصريع السكر: الذي شرب الخمر وصرعته .
(3)تطور الغزل بين الجاهلية والاسلام:شكري فيصل 458.
(4)شرح الديوان 228، وطرف أي لايثبت على شيء واحد.
(5) شرح ديوان عمر 97.

يطــول اليــوم فيــه لا اراكــم ويـومي عنـد رؤيـتكم قصـير [1]

وهنا تتمثل دونجوانية عمر الذي يرى ((كلما احب امراة انه لم يحب قط امراة كما احبها وانه لن يسلو عنها مهما تتبدل الاحوال وتختلف صروف الحياة وكان صادقا في هذا كله، ولكنه لم يكن يلبث ان يقول هذا الشعر حتى يحب امراة جديدة حبا ليس له بمثله عهد، ولن يجد سبيلا الى الانصراف عنه))[2] وفي الحقيقة ان الشاعر كان يرغب في الابقاء على حدة الانفعال في الحب، ذلك ان شدة الانفعال تغذي نبوغه الشعري، ومن هنا كان عشق عمر الحقيقي لشعره قبل كل شيء، ولذا كان يغدق الوعود بالوفاء لسيدته التي يشوقها دائما لموعد يحفز الهامه الشعري، ولن يهتم بعد ذلك ان خسر هذه السيدة مادام قد حقق هدفه الشعري:

ثــم قالــت للتــي معهــا: لا تــديمي نحــوه النظــرا

انــه، ياالخــت، يصــرمنا ان قضــى مــن حاجــة وطــرا [3]

ويقول:

قالـت لهـا: مـاذا ارد علـى فتـى أقصــدته بعفافــة وتكــرم ؟

قالـت: أقـول لـه بأنـك مـازح كلــفّ بكــل مغــور ومــتهم[4]

فالشاعر لم يحب امراة معينة، وانما يحب المرأة مادامت تلهمه وبخاصة اذا كانت جميلة، ذلك أن الجمال يشده ويبهجه ويحفزه للتحليق في خيال موح يقدم له من الصور اضعاف ما يقدم له الواقع الحي، ومن هنا لايمكننا وصف حب عمر بـ(الحب الحسي)، فالمرأة وسيلة لاغاية لديه اذ ان مايصبو اليه تحفيز شاعريته وتفجير مخزونها الإبداعي عن طريق انتقالاته المستمرة من تجربة حب الى اخرى، وربما يبدو في راينا هذا نوع من التعارض مع ما يذهب اليه شكري فيصل الذي يصف حب عمر على انه ((حب تجسده المرأة

(1) م.ن 158.
(2) حديث الاربعاء: طه حسين 310/1.
(3) شرح ديوان عمر 162-163.
(4) م.ن 228.

في محاسنها والطمع فيها والدبيب المتلصص اليها.. انه هذا الحب االحسي الذي تكون المرأة، من حيث هي خلق، مبدأه وتكون كذلك غايته.. اما ما وراء ذلك مما يحققه الحب من معنى التصفية النفسية ويقود اليه من التجرد عن المادة، واما الافاق البعيدة التي تطلقها هذه الهزة الداخلية فشيء لم يقف عمر عنده...ان اللبانة والحاجة وما الى ذلك مما يتصل بالشهوة هي اكثر الكلمات دورانا في هذا الشعر وابرزها فيه))[1]، فقوله هذا فيه كثير من المبالغة وعدم الدقة في فهم الغرض الرئيس الذي يسعى اليه عمر، وفضلا عن ذلك يجب عدم إغفال ان ((الشاعر حين يستخدم الكلمات الحسية بشتى أنواعها لايقصد ان يمثل بها صورة لحشد معين من المحسوسات، بل الحقيقة انه يقصد بها تمثيل تصور ذهني معين له دلالته وقيمته الشعورية))[2].

ويتضح ذلك في قول عمر:

انى امرؤ مولع بالحسن اتبعه  لاحظ لي فيه الا لذة النَّظر [3]

ولهذا نجده لا يصطبر على امراة واحدة ولا حب واحد، فهو ملول يسعى دائما للتجدد، ويشعر ان له (قلبا خلق ليحب كل من في الارض جميعا)[*]:

الم تعلمي يا اسم اني مغاضب  احب جميع الناس لو جمعوا

---

(1) تطور الغزل بين الجاهلية والاسلام: 408.

(2) الشعر العربي المعاصر: عز الدين اسماعيل: 132.

(3) شرح الديوان:493.

(*) ونجد وصفا تقريبيا لشاعرنا على لسان (الدونجوان ) الذي يصف نفسه بقوله ( اما انا فان الجمال يبهجني حيث وجدته، واستسلم بيسر لهذه القوة االعذبة التي تجرنا. قد اكون مرتبطا ولكن الحب الذي اشعر به نحو إحدى الحسناوات لا يلزم نفسي قط على ان اكون غير عادل نحو الأخريات. انني أحفظ عيني لأرى مزاياهن جميعا، وأقدم لكل منهن الاحترام والواجبات التي ترغمنا الطبيعة على تقديمها _ وبعد فان الميول الجديدة لها سحر لا يفسر وكل لذة الحب في التنقل _ وأخيرا فليس ثمة أعذب من الانتصار على مقاومة شخص جميل ولي في هذا موضوع طموح الفاتحين الذين يطيرون

ولما كان الجمال احد العوامل التي تجذب (الدون جوان) وتبهجه فيسعى اليه ويستسلم له، وخاصة اذا كان لامراة جديدة فسحرها يكون اشد ومقاومتها تجعله يشعر بنشوة الانتصار، لذلك فهو لايحب القيود على مشاعره وقلبه، بل يريد قلبا حرا في الحب، فيبدو ان هذا ما سعى اليه عمر وقد اتخذ لتحقيقه طرقا عديدة منها: بعث الرسل واهداء التحية او القيام بالزيارة:

الكنـــي اليهـــا بالســـلام فانـــه يشهـــر المـــامي بهـــا وينكـــر [1]

ويقول:

مـن عاشـق كلـف الفـؤاد متـيم يهدي السلام الـى المليحـة كلثم [2]

ويقول:

فـاتيتهم عنـد العشـاء مخـاطرا حذر الانيس وليس شيئا يسمع [3]

ويقول ايضا:

قلـت لمـا تخلـس الوجـد عقلـي لسليمى: ادَّعـى رَسـولا مريعـا [4]

فابعثيـــه، فاخبريـــه بعـــذري، واشفعي لـي فقد غنيت شفيعا [5]

ولعل تنقل عمر بين النساء وتهيأة واستعداده لخوض المغامرات لم يكن

---

باستمرار من نصر، ولا يستطيعون ان يرغموا انفسهم على ان يحدوا اماتيهم. مأمن شي يستطيع ان يوقف اندفاع رغباتي: فانا اشعر انني قلب يحب كل الأرض، انني أحب الحرية في الحب كما تعلم ).

دون جوان: موليير 33-34،94.

(4) شرح الديوان 183.

(1) م. ن 93، الكنى بالاسلام: أي كن رسولي اليها بالسلام.

(2) م.ن 206.

(3) م. ن 187.

(4) تخلس: استلب، أي استلبه في نهزة.

(5) شرح الديوان 192.

إلا ((تعبيرا من نوع أخر عن هذا القلق الذي كان يعتمل في نفس العربي حينذاك في تلك المرحلة الحضارية الخطيرة التي كان يقف فيها العربي مشدودا بين نمطين من أنماط الحضارة والسلوك)) [1] فالانتقال من الحياة الجاهلية إلى الحياة الإسلامية وما تبع ذلك من تغير في المفاهيم والمعتقدات والانقلاب في موازين والمجتمع نتيجة الاتصال بالحضارات الأجنبية، فضلا عن خروج أبناء الحجاز إلى حروب الفتوح الإسلامية وما أحضره معهم من رقيق أجنبي وجواري، كل ذلك كان أثره كبير على نفسية العربي في تلك الفترة فظل يعاني من حالة قلق وحيرة وعدم استقرار دائم، وقد صور عمر ذلك في شعره اصدق تصوير، فكثيرا ما كان يصف نفسه على لسان صاحباته ((بأنه (طرف) ملول، وما اشد صلة الملل بالنفس الرومانسية القلقة التي لا تكاد تظفر بما كانت تضنه غاية مطمحها حتى تنصرف عنه باحثه عن مطمح جديد))[2]، فيقول:

قلـــت: فانـــي هائـــم صـــبٌ بكـــم مكلـــفُ

قالـــت: بـــل انـــت مـــازح ذُو ملـــةٍ مســـتطرف [3]

ويقـول: متـنقلا ذا ملـة طرفـا لا يسـتقيم لواصـل أبـدا [4]

ان ما يبحث عنه الشاعر هو الحب الجامح الذي يرضي انفعالاته وتطلعاته العاطفية. ومما يلفت النظر في شعره انه يختار بدقة المكان والزمان الذي تدور فيهما إحداث مغامراته الشعرية ويحددهما فالمكان في مكة والزمان هو موسم الحج، ولقد فسر (الجواري) إختيار عمر لهذا الموسم يهدف الاستهتار والعبث، فقال: ((كانت مواسم الحج عنده مواسم لهو وعبث

(1) في الشعر الإسلامي والأموي 185.
(2) م.ن 185.
(3) شرح الديوان 462.
(4) م.ن 328، طرف: أي يستحدث ويستجد كل يوم حبا غير الذي سبق.

واستهتار تضرب فيها مواعيد اللقاء في البيت الحرام وفي البلد الحرام))[1]، ولعل في مقدمة الأسباب التي تدفعه الى اختيار مواسم الحج فرصة لمغامراته العاطفية المتخيلة هو انه المكان والوقت الأكثر حرية لاختلاط كلا الجنسين فيتمكن من رؤية النساء عن كثب من دون ان يثير ريبة احد- فالجميع قادمون لاداء الفرائض- فضلا عن كونه موسما للتجارة والشاعر يعيش في بيت يعمل اهله في التجارة، فتتعدد الوجوه النسائية الجديدة القادمة من شتى الاماكن والتي من الممكن ان تفتح له الابواب لتجارب حب جديدة هي غاية مايسعى اليه، فيقول في ذلك:

فلم أرَ كالتجمير منظر ناظر ولا كليالي الحج افلتن ذا هوى [2]

ويقول:

ولست بناس مقال الفتاة غداة المحصَّب اذ جمَّروا:

الست ملما بنا يا فتى إذا نام عنَّا الأولى نحذر ؟[3]

ويقول أيضا:

أيها الرائح المجدُّ ابتكارا قد قضى من تهامة الاوطارا

من يكن قلبه صحيحا سليما ففؤادي بالخيف امسى معارا

ليت ذا الحج كان حتما علينا كل شهرين حجة واعتمارا[4]

ولكن يبدو ان ذلك لم يكن السبب الوحيد لاختيار عمر، فدافعه الأساسي يظهر من خلال انتهاكه لحرمة هذه الاماكن وحرمة الشعائر الدينية التي تقام فيها، فقد اتخذها اماكن يظهر فيها بطولاته الغرامية ولعل ذلك يعود لان مفهومه عن الدين كان ((لا يزال قرشيا يتطابق فيه مفهوم رب العالمين ورب

(1) الحب العذري 29.
(2) شرح الديوان 459.
(3) م. ن 172.
(4) م.ن 493.

الكعبة أو (رب البيت) الذي كان يجري عنده منذ عهد الجاهلية، وتوزيع الازلام والتداول في الشؤون الهامة او إقامة المآدب الطقوسية، وهذا ما كان يجري أيضا في تبالة الكعبة الاخرى التي اعتاد زيارتها المخزوميون أثناء رحلتهم الى اليمن وعودتهم منها))[1]، فالمفاهيم لديه ما تزال قلقة وغير واضحة، فضلا عما علق بها من المعتقدات الجاهلية وآثارها، ربما لم يصل الشاعر الى رؤية واضحة تمكنه من الفصل بين المفاهيم الجديدة والمفاهيم القديمة.

وبالمقابل من شخصية عمر ذات الطابع الدونجواني المتنقلة في عواطفها، نجد ان تجربة الحب لدى جميل تمثل أنموذجا للحب الثابت الممتد في وافق حدوده يبدء من قبل الحياة والى مابعد الموت، فحبه ((توحيد لا اشراك فيه فهو يملا على المحب نفسه وينتظم أجزاءها فلا تلتفت الا الى الواحد المشغولة به)) [2]:

يهواك ماعشت الفؤاد فان امت  يتبع صداى صداك بين الاقبر [3]

ويقول:

تعلق روحي روحها قبل خلقنا  ومن بعد ما كنا نطافا، وفي المهد

فزاد كما زدنا، فأصبح ناميا  وليس اذا متنا بمنتقص العهد

ولكنه باق على كل حالة  وزائرنا في ظلمة القبر واللحد[4]

فنلاحظ الارتباط بين فكرة الوجدانية في الحب والحب الذي عرف بالعذري فأصبح مثالا محققا لهذه الفكرة ظن وبرزت بإخلاصه ووفائه للحبيبة الوحيدة التي اختارها والتي أصبحت شاغلة الأول وهمه، ويقول:

(1) الغزل عند العرب: ج – فادية، ترجمة ابراهيم الكيلاني 224/1.
(2) الحب العذري 36.
(3) ديوان جميل 109.
(4) م.ن: 77.

ابـى القلـب الا حـب بثنـة لـم يـرد سواها، وحب القلب بثنة لا يجدي [1]

ويقول:

شـهدت بـاني لـم تغيـر مـودتي واني بكم حتـى الممـات ضـنين [2]

ولكن هذه الحبيبة التي يخلص لها جميل غالبا ما تكون غائبة عن الواقع الذي يعيش فيه، وفي الوقت نفسه حاضرة في ذهنه، فهي ربما ليست امرأة عاديـة واقعيـة ذات ملامـح واضـحة بـل هـي بالنسـبة للشـاعر خيـال او طيـف مجهول:

فما غاب عن عيني خيالك لحظة ولازال عنهـا، والخيـال يـزول [3]

ويقول:

فما سرت من ميل ولا سرت ليلة من الدهر الا اعتادني منك طـائف [4]

وقد كان الشـاعر وفيـا دومـا لهذه الحبيبـة من دون ان يكـون متأكدا أنها تبادله الحب نفسه:

اليت لا اصـطفي بـالجود غيـركم حتـى اغيـب تحـت الـرمس بالقـاع [5]

بـل بـالعكس نجده يؤكد علـى استمرارية حبـه لهـا، وبحثـه الـدائم عنهـا، وانتظار لقائها، مع علمه ان ذلك قلما يتحقق، فهذه المرأة تصبح بعيدة المنـال عنه كلما حاول الوصـول اليهـا، او بـالاخرى هو يبعدها عنـه كلمـا احسن انهـا قريبة منه، ويتقرب اليها كلما كانت بعيدة عنه، ويتتج عن هذه الحالـة استمرارية الانفعـال بالحـب وتصـعيده الـى اقصـى درجـات عنفـه وقوتـه، وهـو يعتـرف بـذلك صراحة بقوله:

---

(1) م. ن 75.
(2) ديوان جميل 198.
(3) م. ن 162.
(4) م. ن، اعتادني: زارني.
(5) م. ن 122، الرمس: القبر.

علقت الهوى منها وليدا فلم يزل  الـى اليـوم ينمـي حبهـا ويزيـد [1]

ويقول:

يمـوت الهـوى منـي اذا مـا لقيتهـا  ويحيـــى اذا فارقتهـــا فيعـــود [2]

ويقول:

اذا صـــقبت زدت اشـــتياقا، وان  أرقت لبـين الـدار منهـا وللبعد [3]

ويقول:

فـان لـم ازرهـا عـادني الشـوق  وعـاود قلبـي مـن بثينـة داؤهـا [4]

ويقول أيضا:

فقلـت لـــه: ان البعـــاد يشـــوقني  وبعض بعـاد البـين والنـاي أشـوق [5]

وهنا يتحقق (ثبات جميل على حبه) الذي لم يتنقل من حبيبه الـى أخرى كما فعل عمر وانما ركز ((أحاسيسه على محبوبة واحدة فريدة ويؤمل النفس دوما بالحصول عليها ولكنه يصطنع في الوقت ذاته جميع العراقيل الممكنة ليحول بينه وبين امتلاكها)) [6]:

وان عـــروض الوصـــل بينـــي  وان ســـهلته بـــالمنى لصـــعود [7]

فنراه يختلف جميع العوائق الخارجية الممكنة لجعل الوصال بينه وبين بثينه مستحيلا، فوضع الاعراف القبلية والعادات والتقاليد في مقدمة عوائقه المصطنعة، وقد كان يعلم حق العلم انه يعيش في مجتمع بدوي، ولكن هذا

(1)م. ن 64.
(2) م. ن 67.
(3) الديوان 74، صبقت: دنت .
(4)م. ن 21.
(5) م. ن 145.
(6) في الحب والحب العذري 88.
(7) الديوان 63، العروض: الطريق في عرض الجبل في مضيق، ولصعود: يصعب السير فيه والوصول الى غايته.

المجتمع على الرغم من كونه شبه منعزل بحكم منشئه وسط الصحراء الا ان قانون العشيرة يسمح باختلاط كلا الجنسين مادامت العلاقات بينهما لا تحمل أية ريبة او تشكل خطر على العشيرة، فحياة البادية يعد فيها ((النساء والرجال أنفسهم (إخوة وأخوات) واعتبر الضيف مؤقتا، أخا للمضيفين مع كل ما تحمله كلمة الأخ في لغة العصر، من غموض، وكان فتيان العشيرة الغرباء وفتياتها يتحادثون بحرية حتى ان بنات المحلق استقبلوه، بموافقة والدهن، الشاعر الأعشى وكان الأب فخورا بتلك الزيارة، وتبدو حرية المرأة العربية اذا تامة شريطة التوافق مع عقلية القوم التي تفرض عليها تجنب أي انحراف سلوكي))[1]، وجميل بمعرفة لكل ذلك من الممكن ان يسكت عن حبه ولا يشهر يشهر بمحبوبته، او ان يطلبها للزواج ويريح نفسه من عذاباتها، لكنه فعل العكس اذ أصر على حبه مشهرا بمحبوبته وحار ما نفسه منها ويصرح بذلك فيقول:

لا، لا أبوح بحب بثنة انها  أخذت على مواثقا وعهودا[2]

وقد عد (العقاد) هذا البيت دليلا على حمق جميل حيث قال عنه: ((انه كان مضرب المثل بحق على حماقة (كاتم السر) الذي يقسم الايبوح به،وهو في قسمه على الكتمان قد باح !))[3] ولكن الشيء الذي اغفله العقاد ان جميلا لم يكن احمقا وانما قال ذلك قاصدا متعمدا.

وهذا ما يدفعنا الى القول ان الشاعر في داخله كان يعيش حالة تناقض، فهو يعبر في اللحظة نفسها عن ((اشتياق الحب ورفضه)) [4]، ولعل هذا التناقض يعود سببه الى تردد الشاعر بين البادية والحاضرة،فكانت حياته منقسمة بين البادية بأسلوبها القديم وحياة الحاضرة وما تحمله من نمط

(1) الغزل عند العرب 183/1 - 184.
(2) الديوان 79.
(3) جميل بثينة: العقاد 257/16.
(4) الغزل عند العرب: 1/ 10.

حضاري جديد، فكان لابد ان يعاني الشاعر في هذه الحالة من احساس بالتمزق والشك والاقدام والاحجام بين القديم والجديد مما سبب له هذا التناقض وعدم الاستقرار[1]، ولذا فقد استمر بالدوران في فلك تجربته العشقية، ولم يمنعه حتى زواج بثينة من غيره،بل بالعكس قد حققت له بهذا الزواج عائقا حقيقيا ومستمرا كان سببا لعدم رؤيته بثينة الا مرة واحدة في العام كانت كافية لتجديد حبه:

وفي كل عام يستجدان مرة عتابا وهجرا ثم يصطلحان

يعيشان في الدنيا غريبين اينما اقاما وفي الاعوام يلتقيان [2]

ويقول:

لن تستطيع الى بثينة رجعة بعد التفرق دون عام مقبل [3]

وهنا تتضح لنا حقيقة حب الشاعر الذي كان ((يرغب في عشقه لبثينة اكثر مما كان يرغب في بثينة نفسها)) [4]. فاصبحت عواطف الشاعر في هذه الحالة متركزة حول ذاته التي تحب وليس بثينة كمحبوبة، فالحب قد انعزل عن المحبوب وذلك واضح في قوله:

واني لتنسيني الحفيظة كلما لقيتك يوما ان ابثك مابيا [5]

وقوله:

الا ليتني اعمى اصم تقودني بثينة لايخفى علي كلامها [6]

إنها رغبة الشاعر في عدم الرؤية وعدم السمع ليخرج عن واقعه الحالي ويتبع هواه، فهو متعلق بما مضى وهدفه الحقيقي من وراء هذا الحب الذي

(1) ينظر:في الشعر الاسلامي والاموي 131.
(2) الديوان: 200.
(3) م. ن 181.
(4) في الحب والحب العذري 91.
(5) الديوان 221.
(6) م. ن 193.

يحافظ على عنفه دوما، هو محاولة الابقاء على الهامة الشعري، ويقول في ذلك:

وما يضر امرءا يمسي وانت له  الا يكون من الدنيا له سبد [1]

(1) م. ن 59 .

ويقول:

اذا مـا نظمـت الشـعر فـي غيـر ابـي-وابيهـا-ان يطـاوعني شـعري

وحتى عندما يتحقق اللقاء وتصبح عندئذ جميع العوائق لاغيه ومزالة، ويكونـان فـي مواجهـة بعـض مباشـرة، نجـد إنهمـا يتخـذان مـن العفـة والطهـر والحياء ذريعة يتذرعان بها ((ليحققوا غايتهم في استمرار الانفصـال علمـا بـان سلوكهم في ساعات البعد والفراق لا يقيم وزنا لا للحياء ولا للعفة ولا لاي من هذه القيم المثالية التي يدعون التمسك بها حتى يرون فائدة منها في رفع حرارة وجدهم)) [2] فيقول:

وكـــان التفـــرق عنـــد الصـــباح عـــــن مثـــــل رائحـــــة العنبـــــر

خلـــيلا ن لـــم يقربـــا ريبـــة ولـــم يســـتخفا الـــى منكـــر [3]

فالظاهر من قول الشاعر ان العفة قد غلفت علاقتهما، ولكننا نجده يقول في موضع اخر:

تجـود علينـا بالحـديث، وتـارة تجود علينا بالرضاب من الثغر[4]

قول:

تمتعـت منهـا يـوم بـانوا بنظـره وهل عاشـق من نظـره يتمتـع[5]

ويقول:

فلثمت فاها أخذا بقرونهـا شـــرب النزيـــف ببـــرد مـــاء

ويقول:

---

(1) م. ن 105.
(2) في الحب والحب العذري 95.
(3) الديوان 100.
(4) م. ن 103.
(5) م. ن 118.
(6) م. ن 42، والحشرج: النقرة في الجبل يجتمع فيها الماء فيصفو.

نعم لحاف الفتى المقرور يجعلها شـــعاره حـــين يخشـــى القـــر

ويقول:

وتقـول: بـت عنـدي _ فـديتك _ أشكـو اليـك، فان ذاك يسيـر[2]

ويقول أيضا:

فان كنت تهوى أو تريد لقاءنا علـى خلـوة فاضـرب لنـا منـك

فأين العفة التي يدعيها الشاعر ؟ وأين العذرية التي وصف بها حبه ؟ أليس في أحاديثه هذه رغبة مبطنة ومختفية تحت غطاء العفة، وأين أقواله هذه من رأي شكري فيصل الذي عد نشوء الغزل العذري بدافع من (تقوى إسلامية) والعفة من أهم صفاته فيقول ((والغزل العذري تعبير عن وضع طائفة من المسلمين كانت تتحرج وتذهب مذهب التقى وتوثر السلامة والعافية على المغامرة)) والمخاطرة وترى ان النفس امارة بالسوء ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [4] وان النار قد حفت بالشهوات على حد تعبير الحديث الشريف وانه من الخير لها ان تصبر... وان تلتزم ما امر الله به ان يلتزم ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [5]، ولذلك اثرت هذه الطائفة ان تعدل عن شهواتها فكانت فكانت مثلا واضحا للتربية الاسلامية في سموهما وتعاليها... ومن العفة التي كان بواكبها الدين ومن الحب الذي كانت تواكبه الغريزة من هذا كله كان هذا الحب العذري وكان لابد للمومنين الاعفة الذين اخفقوا في حبهم من أن يعبروا عن هذا الاخفاق وان يتحدثوا عنه في هذه الصورة او تلك... ومن هنا وجدوا في الفن القولي سبيلا الى التعبير عن مشاعرهم)) [6].

(1) م. ن 59.
(2) م. ن 98.
(3) م.ن: 79.
(4) سورة يوسف: من الاية 53.
(5) سورة النور: من الاية 33.
(6) تطور الغزل بين الجاهلية والاسلام 280_ 287.

وفي الحقيقة ان هذه العفة لم تكن نابعة من قناعته الشخصية كما لم تكن صادرة عن تقوى دينية او بدافع الاسلام وانما كانت عبارة عن تحدي المجتمع وتمرد على تقاليده التي سببت نوعا من الكبت والحرمان للشاعر عبر عنهما بهذه العفة، وهنا يمكننا القول ان ((العذرية صفة للحب من خارج، أي من المجتمع وعاداته وتقاليده وليست من الداخل _ أي من المعاناة والتجربة الشخصيتين _ فهي ظاهرة سلبية لا ايجابية)) [1].

فمعاناة الشاعر الحقيقية وحرمانه كانت من القوانين المجتمع لذلك حاول بكل الطرق والخروج على هذا المجتمع وعلى أنظمة وسلطته فكان حبه ((خرقا للعادة والشريعة لأنه لا يأبه لروابط الزواج، والزواج يخرج المرأة من حدود المباح ويجعلها محرمه فحب المرأة المتزوجة ليس انتهاكا لعادات المجتمع وحسب وانما هو كذلك انتهاك للشريعة))[2] وجميل لم يابا في علاقته ببثينة لا بالشريعة ولا بالمجتمع، اذ يقول:

تعالى نبع في العام يابثن ديننا  بدنيا، فانا قابلا سنتوب

فقالت: لعنا ياجميل نبيعه  واجالنا من دون ذاك قريب [3]

وهو لم يكتفي بذلك فتجاوز حده بتحديه للسلطة ايضا والذي يتضح في الرواية التي ذكرها الاصبهاني عن بعض أصحاب جميل: ((قدمت من عند عبدالملك بن مروان وقد اجازني وكساني بردا، كان ذلك البرد أفضل جائزتي فنزلت وادي القرى فوافقت الجمعة بها واستخرجت بردي الذي من عند عبدالملك وقلت أصلي مع الناس، فلقيني جميل، وكان صديقا لي، فسلم بعضنا على بعض وتساءلنا ثم افترقنا، فلما امسيت اذا هو قد اتاني في رحلي فقال: البرد الذي رايته عليك تعيرينه حتى اتجمل به، فان بيني وبين جواس مراجزة...قلت: لا بل هولك كسوة، فكسوته اياه ... فلما اصبحنا جعل

(1) الثابت والمتحول: ادونيس 252.
(2) م. ن 255.
(3) ديوان جميل 28.

الاعاريب ياتون ارسالا حتى اجتمع منهم بشر كثير، وحضرت واصحابي، فاذا بجميل قد جاء وعليه حلتان مارايت مثلما على احد قط، واذا بردى الذي كسوته اياه قد جعله جلا لجمله...)) [1].

فتبرز هذه الحادثه جراة الشاعر واعجابه بنفسه وتمرده واستهزانه بالسلطة فقد اتخذ خلعة الخليفة التي يتباهي بها صاحبها جلا لجمله وارتدى اجمل منها.

وهنا يلتقي كل من الشاعرين –عمر وجميل – في عدم وضوح المفاهيم الاسلامية لديهما، ولهذا حاول كل منهما الخروج على تقاليد المجتمع وتحديها بانتهاكهما للعادات والاعراف السائدة ومحاولة تجاوزها وكل بطريقته واسلوبه وعندئذ يتجاوزان الكبت الذي كانا يعانيان منه من جراء الضغوط الاجتماعية المفروضة عليهما، فشعر هما قد صدر عن فكر معين ولم يات اعتباطا فهما يمثلان موقفين متشابهين يمكن ان نطلق عليهما بالتمرد ضد الواقع، فكلاهما ربما لم يستوعب الراهن ورغب في شيء اخر غيره، وهذا يفسر لنا سبب رفضهم لدعوات العذال ولومهم ودعوات الناصحين لهم بالتعقل فيقول عمر:

أيهـــا العاذلـــي اقـــل عتـــابي  لـم اطـع فـي وصـالها العـذالا [2]

ويقول:

اقـــول لمـــن لام فـــي حبـــها:  أرى لـك فـي الـرأي ان تقصـرا

فلســت مطاعــا، فــلا تلحنــي  وليســت بأهــل لان تهجــرا [3]

(1) الأغاني: 134/8 -135.
(2) شرح ديوان عمر 363.
(3) م.ن 147.

ويقول ايضا:

ان العـواذل قـد بكـرن يلمننـــي وحسـبت أكثـر لـومهن ضـرارا

وزعمـن ان وصـال عبـده عائـد عـارا علـى، ولـيس ذلـك عـارا [1]

يقول جميل:

يـا عـاذلي مـن المـلام دعـاني ان البليـة فـوق مـا تصفـان[2]

ويقول:

وعـاذلون لحـوني فـي مودتهـا يـاليتهم وجـدوا مثـل الـذي اجـد

لما اطالوا عتابي فيك قلت لهم: لا تفرطـوا، بعـض هـذا للـوم [3]

ويقول أيضا:

لاهلـي حتـى لامنـى كـل ناصـح شـفيق لـه قربـي لديـنا وابصـر

وقطعنـي فيـك الصـديق ملامـة وانـي لاعصـي نهيهم حين ازجر [4]

بل ان هذه الدعوات تزيدهم تعلقا، فيقول عمر:

لعمـري لقـد كـان الفـؤاد مسـلما صـحيحا فأمسـى لايطيـق لهـا [5]

ويقول جميل:

تعلقتهـا والـنفس منـي صـحيحة فمازال ينمي حب جمل وتضعف [6]

على إننا يجب ان ننتبه الى ان تمرد عمر وجميل كان يسير باتجاهين متباينين فعمر حاول ان يزعزع نظام القيم الموروثة بكل اتجاهاتها ليحل محلها

(1) م.ن 144.
(2) ديوان جميل 201.
(3) م. ن 59.
(4) ديوان جميل 91.
(5) شرح ديوان عمر 127.
(6) ديوان جميل 133.

نظاما من القيم الجديد للحرية والمرأة وللحياة ككل، اما جميل فقد حاول الرجوع الى قيمه القديمة راغبا في استعادتها والحفاظ عليها، وقد اتخذا من التجربة العاطفية بما تحمله من إحساسات ومشاعر تتجاوز الشعور الفردي وسيلة للتعبير عن رؤيتهما الفنية تجاه الواقع والحياة، ولذا لايمكننا القول عن شعر عمر انه حسي ولا عن شعر جميل انه عفيف، فكلاهما قد عاش4تجربة حب خاصة، فيقول عمر:

الحب ابغضه الى اقله صرح بذاك، وراحة تصريح [1]

ويقول:

من يكن أمسى خليا من هوى ففؤادي ليس منها بخلي

او يكن أمس تقيا قلبه فلعمري ان قلبي لغوي [2]

ويقول جميل:

يقولون: صب بالغواني موكل ؟ وهل ذاك من فعل الرجال بديع ؟

وقالوا: رعيت اللهو والمال فكالناس فيهم صالح ومضيع [3]

وكلاهما قد غلف هذه التجربة بالعفة فيقول عمر:

هكذا وصف مابدا لي منها ليس لي بالذي تغيب علم [4]

ويقول:

ذاك ظني، ولم اذق طعم فيها لا، وما في الكتاب من تنزيل [5]

ويقول أيضا:

(1 ) شرح ديوان عمر 463.
(2) م. ن 481.
(3) ديوان جميل 121.
(4) شرح ديوان عمر 242.
(5)م. ن 338.

اذا اجتمعنا هجرنا كل فاحشة عند اللقاء، وذاكم مجلس حسن

فذاك دهر مضت عنا ضلالته وكل دهر له في سيرة سنن [1]

ويقول جميل:

لا والذي تسجد الجباة له مالي بما دون ثوابها خير

ولا بفيها ولا هممت به ماكان الا الحديث والنظر [2]

## المرأة موضوعا للحب:

وضحنا في المبحث السابق ان عمر مثال للحب الدونجواني في تنقله من تجربة حب الى اخرى ولهذا تعددت النساء اللاتي ذكرهن في شعره، فاختار النساء المنتميات للطبقة الاجتماعية التي كان منها، فوجدنا في شعره ((المرأة العربية المترفة واضحة جلية الصورة، تنفق حياتها في هذه الدعة والنعمة اللتين، على عفتهما وطهارتهما، لا تخلوان من لهو ودعابة، ولا من عبث وفكاهة)) [3]، فحرص الشاعر على ان تكون هذه المرأة عربية الاصل والنسب والاخلاق، ومن بيئة متحضرة ذات نعمة وترف:

واعجبها من عيشها ظل غرفة وريان ملتف الحدائق اخضر

ووال كفاها كل شيء يهمها فليست لشيء اخر الليل تسهر [4]

ولعل تأكيده على هذه الصفات سببه ان هذه المرأة تكون بعيدة المنال ومحاطة بأهلها وقومها وبحراس اشداء يمنعون من يريد الوصول اليها او الاقتراب منها، وهذا ماجذب الشاعر بالدرجة الاولى، فكلما كانت هذه المرأة منيعة كانت محاولة الوصول اليها محفوفة بالصعاب والمخاطر وتتطلب جرأة

(1) م. ن 281.
(2) ديوان جمل 89 _ 90 .
(3) حديث الاربعاء 297/1.
(4) شرح الديوان 95.

وتحديا واستعدادا للمواجهة، وعندئذ تكون المغامرة أعذب:

لعلـك تبلـين الــذي لــك عندنــا فتدرين يومـا ان احطـت بـه خبـرا

لكي تعلمـي علمـا يقينـا، فتنظـري أيسر الاقي في طلابك أم عسرا[1]

فتظهر عند ذلك شجاعة الشاعر واقدامه وتحديه لجميع القيود المحاطة بهذه المرأة ومحاولة اختراقها وازالة جميع الحواجز التي تبعدها عن المجتمع وخاصة في تلك الفترة التي أصابت مدن الحجاز فيها ثراء واسعا وترفا بالغا، فضلا عن ذلك ((فقد زاد تحضر مكة والمدينة ونشأت طبقة من الرجال والنساء على مستوى طيب من (ثقافة العصر) ومستوى عال من المكانة الاجتماعية والثروة التي تتطلع الى ان تحيا حياتها كما ينبغي أن يعيش المرء في مجتمع متحضر))[2]، وبما أن الشاعر رغب بالدرجة الاولى الى احدث تغييرات في المجتمع، والمرأة تعد كيانا اساسيا فيه وتغيير المجتمع مرتبط بالدرجة الاساس بتغيرها، فكان لابد ان تخرج هذه المرأة الى المتجمع لاسيما وانها قد ((نالت حرية واسعة في هذا العصر لم تكن جدتها او امها تنالها، وان طبيعة الحياة نفسها وما كان فيها من مزاحمة الجواري الأجنبيات من فارسيات ورروميات لها جعلها تخرج من حجابها القديم، وتطلب الرجل وتغازله)) [3] ولكن على الرغم من تحضر المجتمع ونيل المرأة الحرية فيه، الا انه مازال مجتمعا (انفصاليا)، فظلت تحكمه قيود وضوابط تحد من الاختلاط بين الجنسين لكونه مجتمعا واسعا يضم اناسا من مختلف الطبقات، ففيه النساء العربيات الشريفات العريقات النسب وفيه الأسياد الاشراف الكرماء، كما فيه الجواري والعبيد ولكي يتحقق تكامل المجتمع بحضور المرأة فيه لم يكن امام هؤلاء النسوة من سبيل لتحقيق (وجودهن الاجتماعي) و(رضاهن العاطفي) الا بان يربطن أسبابهن بسبب فتى من فتيان قريش وشاعر مرموق يلهج الناس

(1) م. ن 108.
(2) في الشعر الاسلامي والاموي 191.
(3) التطور والتجديد في الشعر الاموي، شوقي ضيف: 223.

بشعره ويتغنّ به المغنون فيذكرهن ويطري محاسنهن جاعلا منهن بذلك (سيدات مجتمع) ولم يكن هناك أفضل من مواسم الحج لقيام تلك الصلات بين الجنسين وتحقيق اللقاءات العارضة، ولذا فان سعي الشاعر وراء النساء لم ينبع من (تكوين) نفسي خاص او فلسفة وواضحة تغلب المتعة الحسية على المتعة النفسية، بل هو جانب من جوانب الحياة عنده لايناقض احساسه بالمعاني النفسية والحب الصادق [1].

ومن هنا وجب ان لانستغرب كثيرا من تصوير النساء مقبلات عليه عاشقات له في اطار شعري فكاهي ربما لا يخلو من احساس صادق بالحب من ذلك قوله:

قالت لترب لها ملاطفة: لتفسدنّ الطواف في عمر

قالت: تصدى له ليبصرنا ثم اغمزيه، ياخت، في خفر

قالت لها: قد غمزته فابى ثم اسبطرت تسعى على اثري [2]

وقوله:

قالت لترب لها منعمة كالريم يقرو نواعم الشجر:

هل من رسول يكمي حوائجنا بحاجة تشتهى الى عمر [3]

ولعل عمر لم يهدف من ذلك كله الى صداقة المرأة كما فسر ذلك طه حسين الذي لم يشك في أنه ((كان صديقا للمرأة بالمعنى الحديث الذي نفهمه لصداقة المرأة، كان يريد لها من الحرية مثل ما يريده للرجل، ... وان تكون صلة الغزل بين الرجل والمرأة صلة ظاهرة لاحرج فيها ولا جناح، ... وان تظهر المرأة فخرها بجمالها وروعتها كما يظهر الرجل فخره بشجاعته وباسه،.... وان تستفيد الجماعة الانسانية من خلال المرأة، كما تستفيد من

(1) ينظر: في الشعر الاسلامي والاموي: 191 _ 192.
(2) شرح الديوان 145.
(3) شرح الديوان 146.

خلال الرجل، كان يريد ان تزول الفروق بين الجنسين والا يكون بينهما حجاب))[1]. وفي هذا القول شيء من المبالغة فالمجتمع كان لا يزال حديث العهد بالاسلام، فضلا عن بعض التقاليد القديمة العالقة فيه، ويبدو ان ما يسعى له عمر من حرية للمرأة هي تلك الحرية في تحقيق مكانتها الاجتماعية والثقافية والعاطفية لاسيما بعد مزاحمة الجواري لها، ولذا جاء وصفه لكل ما يحيط بهذه المرأة من مظاهر التحضر والنعيم بصور مختلفة منها وصفه للاثر الذي تحدثه صغار النمل لو مشت فوق ثيابها مشيا خفيفا لتركت اثر مشيتها في جلدها:

لو دب ذَّر رويدا فوق قرقرها  لاثر الذر فوق الثَّوب في البشر[2]

ويقول:

منعمة لو ذرَّ بجسمها  لكان دبيب الذر في الجسم يكلم[3]

وصاحبه عمر تتطيب بأفضل أنواع الطيب الذي يفوح شذاه من تحت أكمامها:

خود يفوح المسك من  اردانها والعنبر[4]

ويقول:

يفوح القرنفل من جيبها  وريح اليلنجوج والعنبر[5]

وتضوع المسك الذكي وعنبر  من جيبها قد شابه كافور[6]

ونجد في شعره وصفا لملابس هذه المرأة المتحضرة، وليس ملابسها فقط بل ملابس المحيطات بها من صاحباتها:

---

(1) حديث الاربعاء 309/1.
(2) شرح الديوان 117، القرقر: ثياب المرأة .
(3) م. ن 216.
(4) م. ن 171.
(5) شرح الديوان 173.
(6) م. ن 130.

فقامت اليها حرتان عليهما كسا ان من خز دمقس واخضر [1]

ويقول:

يسحبن خلفي ذيول الخزاونة وناعم العصب كي لا يعرف الاثر [2]

ويقول:

يرفلن في مطرفات السوس وفي العتيق من الديباج والقصب [3]

وما تتحلى به من أصناف الحلي: يقول:

والزعفران على ترائبها شرق به اللبات والنحر

وزبرجد ومن الجمان به سلس النظام، كانه جمر

وبدائد المرجان في قرن والدر والياقوت والشذر [4]

وذكر عفة نفسها وصونها وعدم ابتذالها في العمل، بل كانت مخدومة مدللة:

عقائل لم يعشن بعيش بؤس ولكن بالغضارة والنعيم [5]

ويقول:

ومد عليها السجف يوم لقيتها على عجل تباعها والخوادم

فلم استطعها غير ان قد بدالنا عشية راحت كفها والمعاصم

معاصم لم تضرب على البهم عصاها، ووجه لم تلحه السمائم [6]

والملاحظ هنا ان الشاعر لم يترك صغيره ولا كبيرة من اثار ترف هذه

(1) م. ن 99 .
(2) م.ن 116.
(3) م. ن 428.
(4) م . ن 141.
(5)م. ن 224.
(6) شرح ديوان عمر 208.

المرأة الا ذكرها ووصفها بدقة متناهية كانه مصور قد التقط صوره من عدة اتجاهات، فالشاعر قدم لنا صورة مكتملة عن المرأة في عصره،اذن المرأة في شعره واقعية مستمدة صورتها من الواقع الذي يعيش فيه، وعلى الرغم من ان صفات المرأة قد سبقه اليها شعراء العصر الجاهلي كالأعشى الذي يصف عطرها:

اذا تقوم يضوع المسك اصورة  والزنبق الورد من أردانها شمل

ويصف امرؤ القيس فتاته المنعمة بقوله:

وتضحي فتيت المسك وفوق  نؤوم الضحى لم تنتطق عن

وغيرهم من الشعراء قد عبروا عن ترف المرأة التي عشقوها، الا ان عمر قد بالغ في ذكر هذه الصفات، ولعل لهذه المبالغة وجها اخر أراد ان يوضحة الشاعر وهو شدة النعيم والترف الذي كانت تعيشه المرأة الحجازية ذات المكانة العالية في تلك الفترة، ولهذا لم يلتفت الشاعر في وصفه الى الجواري اللاتي غرق الحجاز بهن في ذلك العصر، وحُزن مكانة ليست بالقليلة في المجتمع الحجازي فكانما ((قد استقر في نفسه ان هولاء الجواري لسن اكثر من وسائل اللهو والتاع لايليق به ان يتجه اليهن بغزله)) [3]، وهو لو لو تغزل بهن في شعره لاصبحن بمساواة المرأة العربية، وهو مالم يرغب فيه عمر، على اننا نجد في بعض شعره ذكر لحوار، كـ (حميدة) جارية ابن ماجة، التي يقول فيها:

حمل القلب من حميدة ثقلا  إن في ذاك للفؤاد لشغلا

إن فعلت الذي سالت فقولي  حمد خيرا، او اتبعي القول فعلا

(1) ديوان الاعشى: شرح وتعليق: محمد حسين 55.
(2)ديوان امرؤ القيس: تحقبق: محمد ابو الفضل ابراهيم 17.
(3) تاريخ الشعر العربي: يوسف خليف 80.

وصـــليني، فاشـــهد الله انـــي لسـت اصـفي سـواك مـا عشـت [1]

و(ديباجة الحرم) ونج ذكرا لجارتين مغنيتين هما (البغوم واسماء) ومن شعره فبهن قوله:

صـرمت حبلك البغـوم، وصـدت عنـك فـي غيـر ريبـة اسمـاء

والغوانـــي اذا راينـــك كهـــلا كـان فـيهن عـن هـواك التـواء[2]

ولعل ذكره لهما يعود الى ان ((بعض الشعراء كانوا يشببون بجواري عشيقاتهم او رسلهن سترا لهن وقد سلك عمر هذا السبيل في بعض شعره)) [3]، فضلا عن ان هذه الجارية سهلة المنال ولا يثير الوصول اليها أية نشوة بالانتصار، كما انها لاتبلغ من الاهمية في المجتمع المكانة التي تبلغها السيدة العربية، ومن هنا فقد تعددت الاسماء في شعره، واغلب هذه الاسماء ذات دلالة حقيقية فوجدنا في شعره عائشة بنت طلحة، وسكينة بين الحسن، وزينب بنت موسى الجمحية، وفاطمة بنت الاشعث، والثريا، وهند وسعدى... الخ [4].

الذي يلفت النظر في شعر عمر تلك الدقة التي يصف فيها ترف النساء من ملابس وحلي وعطر... الخ، مع انه كان يلتقي بهن اثناء الطواف في الحج او بعد مغامرة ليلية –على حسب ادعاءاته –تجشمها للوصول الى هذه المرأة او عند رحيل قومها وتوديعها، وكل هذه المواقف تجعل الانسان منشغلا بالموقف نفسه لقوة تاثيره عليه، فلا ينتبه الى مايرتديه الشخص المقابل او ما يحيط به من مظاهر مختلفة ولكننا وجدنا الشاعر على العكس من ذلك.وهذا ان دل على شيء فانما يدل على شيء فانما يدل على ان هذه اللوحة المتكاملة باطرافها من مغامرة ونساء واحداث كما يقدمها لنا عمر في شعره كانت عبارة عن صورة فنية صاغها خياله، بعض اطرافها مستمدة من الواقع لكنه اعاد

(1) شرح الديوان 498.
(2) م. ن484.
(3) عمر بن ابي ربيعة: جبرائيل جبور 292/3.
(4) يتظر: م. ن33/3 _ 289.

صياعتها في ذهنه صياغة فنية، والصورة هي ((اعادة انتاج عقلية، ذكرى، لتجربة عاطفية او ادراكية غابرة ليست بالضرورة بصرية)) [1]، ومما يؤكد قولنا هذا، ان الشاعر كان يردد كلمة (تذكز) و (تذكرت) و (ذكرها) كثيرا في شعره، والتذكر عادة يرتبط باشياء يتخيلها الانسان في ذهنه وبأفكار عالقة في ذاكرته و((عالم الافكار _ وهو بطبيعة غير واقعي _ يحاول ان يصبح واقعيا بمعانقته للاشياء والبروز من خلالها، لكن هذه المعانقة ليست فناء للفكرة في الشيء او مجرد تحول الفكرة الى الشيء، أي انتقالا كليا من اللاواقع الى الواقع، بل على العكس، تظل الفكرة في ذاتها هناك بلا واقعيتها وان تراءت لنا واقعية من خلال ماتعانق من أشياء واقعه، ومن هنا كانت (الصورة) دائما غير واقعية وان كانت منتزعة من الواقع لان الصورة الفنية تركيبة وجدانية تنتمي في جوهرها الى عالم الوجدان الاكثر من انتمائها الى عالم الواقع)) [2] ويتضح ذلك في قوله:

تـــذكرت بالشـــرى أيامهـــا وأيامنـــا بكثيـــب الأمـــر [3]

وقوله:

وتـذكرت قولهـا لـي لـدى الميـل وكفـــت دموعهـــا أن تمـــورا [4]

وأراد عمر من وراء صياعته الفنية لهذه المغامرات الفكاهة والمزاح وخلق اجواء مرحة مثل تلك الاجواء التي يعمد اليها الشباب تسلية وتفاخرا وعبثا والشاعر في خضم ذلك كله لم ينس ان يصور عواطف المرأة المتحضرة في تلك الفترة وقد اجاد في ذلك،ولعل لاتصاله بهؤلاء النساء بحكم كونه شاعرا مرموقا، ورغبته في احراز المرأة مكانة في المجتمع، كل ذلك دفعه لاختراق عالم المرأة وتصوير مشاعرها وأحوالها النفسية وكل ما يطرأ

(1) نظرية الأدب: رينيه ويليك _ اوستن ولرين، ترجمة: محي الدين صبحي 240.
(2) الشعر العربي المعاصر 127.
(3) شرح الديوان 176.
(4) م. ن 137.

عليها من انفعالات عندما تحب، فيقول:

امـن سـخط علـى صـددت عنـي  حملت جنـازتي، وشهـدت فبـري [1]

ويقول:

وقولهـا ودمـوع العـين تسـبقها  فـي نحرهـا: دين هذا القلـب مـن [2]

ويقول:

قالـت: محـب رمـاه الحـب اونـة  وهيجتـه دواعـي الحـب إذ حـارا [3]

ويقول أيضا:

تقـول اذ ايقنـت انـي مفارقهـا:  يا ليتني مت قبل اليوم يـاعمر [4]

وهـو بتصـويره لعواطـف المـرأة قـد فسـح المجـال امامهـا لتعبـر عـن مشاعرها بحرية ومن دون قيود، فكسر طوق التقاليد المحيطة بها، واشبع حب ذاته الشابة وروحة المرحة ومجالسه المشوقة وصحبه من المترفين والسراة.

(1) م. ن 136.
(2) م. ن 118.
(3) شرح الديوان 122.
(4) م. ن123.

_ 2 _

اما الشاعر جميل الذي اخلص لهذه المحبوبة الوحيدة والتي كانت بالنسبة له طيفا او خيالا حاول ان يمجدها ويضفي عليها من الصفات ما يجعلها سامية ويرفعها الى المستوى المثالي، مما يوحي أن علاقة الشاعر بهذه الحبيبة لم تكن علاقة عادية أو عابرة، بل نجد أن العلاقة التي تجمعهما أوسع واكبر، ومن هنا كانت نظرته اليها نظرة خضوع واستكانة:

الا تتقين الله فيمن قتلته فامسى اليكم خاشعا يتضرع [1]

وتوجهه اليها توجه الخاضع لمحبوبه:

وانى لا ستبكي اذا ذكر الهوى اليك واني من هواك لاوجل [2]

وهو يتوسل اليها ويستعطفها لكي ترحمه:

ارحميني فقد بليت فحسبي ببعض ذا الداء يابثينة حسبي [3]

بل نجد اكثر من ذلك فامرها مطاع:

فمريني اطعك في كل امر انت والله اوجه الناس عندي [4]

فهل هناك حبيبة احتلت المنزلة التي بثينة عند جميل ؟ ويبدو ان الشاعر اراد ان يضفي هالة من القدسية على هذه الحبيبة، وربما يعود ذلك الى وجود ترسبات قبل _ اسلامية عن الالهة المتعددة، والتي من الواضح ان مجيء الاسلام لم يمحها كليا من ذهن العربي فـ ((التعيين الاصطلاحي للتثليث الالوهي الذي قاومه القران بشكل خاص ايحاني، بمعنى ان حبيبة العذريين تبدو وكانها تجسد التركيب القائم على: اللات (= الهة) والعزى (=مطلقة القدرة) ومناة (= الهة القدر والموت))) [5]، وهذا مما جعل فكر الشاعر يتركز

(1) الديوان 117.
(2) م. ن 161.
(3) م. ن 32.
(4) م. ن75.
(5) سوسيولوجيا الغزل العربي ( الشعر العذري نموذجا ): الطاهر لبيب، ترجمة: مصطفى

يتركز حول هذا الحب وهذه الحبيبة، فبالتالي أصبحت هذه الحبيبة تمثل الحياة والموت:

فـــاحيي _ هـــداك الله _ نفســـا  طـويلا بكـم تهيامهـا وعناؤهـا [1]

ويقول:

يـابثن جودى وكـافي عاشـقا دنفـا  واشفي بذلك أسقامي وأوجاعي [2]

واصبحت هي صاحبة القدرة المطلقة:

ابثـين انـك قـد ملكـت فاسـجحي  وخذي بحظك من كريم واصل [3]

وذكر هذه الحبيبة هو الشفاء الوحيد للشاعر:

فأنـت لعينـي قـرة حـين نلتقـي  وذكرك يشفيني اذا أخدرت رجلي [4]

ويقول:

اذا خدرت رجلي، وقيل شفاؤها  دعاء حبيب، كنت انت دعائيا [5]

ولهذا لا يذكر لسانه أحدا سواها:

(ان اللسان بذكرها لموكل) [6]

والملاحظ هنا ان الشاعر يستخدم ألفاظاً ودلالات اسلامية في علاقته بهذه الحبيبة، ويتضح ذلك بشكل أوسع في قوله:

اصـــلي، فـــابكي فـــي الصـــلاة  لـي الويـل ممـا يكتـب الملكـان [7]

---

مصطفى الحسناوي 100

(1) الديوان 21.
(2) م. ن 122.
(3) م. ن 178.
(4) م. ن 172.
(5) م. ن 221.
(6) م. ن 98.
(7) الديوان 200.

وقوله:

وبين الصفا والمروتين ذكرتكم بمختلف من بين ساع وموجف

وعند طوافي قد ذكرتك ذكرة هي الموت، بل كادت على الموت

(1)

فهذه الافعال (الصلاة _ السعي بين الصفا والمروة _ الطواف) هي من اهم الاركان التي يقوم بها المؤمن ليتقرب الى الله ويكسب رضاه لكننا نجد ان الشاعر يوظف هذه المعاني الاسلامية في شعره كافعال تذكره بالحبيبة وليست واجبا دينيا عليه الاقتناع به واداءه على اكمل وجه، وهنا تظهر حالة التناقص التي كان يعيشها الشاعر مرة اخرى في تردده بين المفاهيم قبل الاسلامية والمفاهيم الاسلامية، ويظهر احساسه بالتناقص في قوله:

(لي الويل مما يكتب الملكان) (2)

فـ ((اذا كان (ملاك الكتف الايسر) هو وحده الذي ينبغي ان يتدخل بالنسبة للمؤمن، في مثل هذا الموقف لتسجيل الذنب، فان جميلا يجعل الثاني بدوره يتدخل، أي (ملاك الكتف الأيمن) لكي يسجل ما لاندريه من الحسنات)) (3).

ومن هنا نرى الى أي مدى كان (الجواري) بعيدا في تفسيره لهذا الحب الذي عده ((ظاهرة اسلامية كان الدين الجديد والنظام الاجتماعي الذي جاء به الاثر الاول في خلقها وفي اخراجها على هذه الصورة)) (4)، ولقد قيلت أبيات أبيات مشابهة لأبيات جميل على لسان (مجنون ليلى) توضح حالة التناقض ذاتها: فنراء يقول:

ذكرتك والحجيج لهم ضجيج بمكـــة والقلـوب لهـا وجيـب

(1) م.ن 130،
(2) م. ن 200.
(3) سوسيولوجيا الغزل العربي 102.
(4) الحب العذري 57.

فقلت ونحن في بلد حرام ... به الله أخلصت القلوب
أتوب إليك يا رحمن مما ... عملت فقد تظاهرت الذنوب
فأما من هوى ليلى وتزكى ... زيارتها فإني لا أتوب [1]

وقوله:

أراني اذا صليت يممت نحوها ... بوجهي وان كان المصلي ورائيا
ومآبي إشراك ولكن حبها ... وعظم الجوى أعيا الطبيب [2]

فثبت لدينا ان هذه الحالة كانت عامة عند هذه الطائفة من الشعراء وليس جميلا فقط، فالألفاظ والدلالات الإسلامية في هذا الشعر ربما لأتدل على توجه ديني للشاعر.

ومن هنا فقد أصبح حب بثينة هو كون الشاعر الحقيقي، بل وجوده الضائع الذي يحاول ان يستعيده، فهذا الحب بالنسبة له ((رمز للخلق، ولتجديد الحياة _ وهو يصور لنا اتصاله ببثينة على انه نوع من الاتصال بالطاقة الكونية او نوع من اتصال طرفي الخلق الانثى والذكر، فالحب عنده هو الوجود الكامل، ففيه يستعيد نفسه الضائعة، وفيه يشعر بوجوده يتفتح ويكتمل))[3]، اذن الحب الذي تمثله هذه الحبيبة هو الحلم الوحيد الذي بقي للشاعر، لهذا حاول بكل الطرق الوصول اليه ومحاولة تحقيقه، ذلك ان هذه المرأة هي الدلالة الوحيدة على الحياة في وجود الشاعر الساكن وتحقيق كينونته وكأن لسان حالة يقول: انا احب، فانا موجود، ولذا عد حبها جهادا يضحي فيه بحياته ويموت في سبيله استشهادا:

يقولون: جاهد ياجميل بغزوة ... واي جهاد غيرهن اريد [4]

(1) ديوان مجنون ليلى: تحقيق وشرح: عبد الستار احمد فراج 64.
(2) م. ن 294.
(3) الثابت والمتحول 253.
(4) الديوان 67.

ويقول:

لكـــل لقـــاء نلتقيـــه بشاشـــة وكـــل قتيـــل عنـــدهن شـــهيدا [1]

وربما أراد الشاعر التلميح _ بشكل غير مباشر _ عن رفضه الخروج للجهاد في تلك الفترة التي عاصرت ((اندفاع المسلمين الى الجهاد والفتوح والمرابطة في الثغور واستبسالهم في الحروب إيمانا بالمبادئ التي كانوا يحملونها واستهانة بالموت في سبيلها)) [2].

ويبدو ان الشاعر لم يأبه لذلك كله فقد كان منشغلا بنفسه وحبه، ولما كان الحب الذي تمثله هذه الحبيبة هو جهاد الشاعر الحقيقي،ذلك الحب الذي سيحقق فيه ذاته، كان لابد ان تبلغ هذه الحبيبة درجة من السمو والمثالية تجعلها تختلف عن كل النساء، وفضلا عن ذلك راياه ينعتها بصفات تبرزها كامرأة منعمة مرفهة ومصونة غير مبتذلة ليزيد من سموها فيقول في ذلك:

غرائـر لـم يلقـين بـؤس معيشـة يجـن بهـن النـاظر المتنـوق [3]

وهي ناعمة البشرة لشدة ترفها:

من الخفرات البيض خود كأنها إذا مامشـت شـبرا مـن الأرض

منعمـة لـو يـدرج الـذر بينهـا وبين حواشي ثـوبها ظـل يجرح [4]

(1) م. ن 64.
(2) الحب العذري: كامل مصطفى الشبيبي 85 – 86.
(3) الديوان 147.
(4) م. ن 45.

ويقول:

أنـاة علـى نيـرين أضحـى لـداتها بلين بـلاء الـريط وهـي جـديد [1]

ويقول:

يكاد فضيض الماء يخدش جلدها اذا اغتسلت بالمـاء من رقـة الجلد [2]

ويشبه رائحتها برائحة المسك:

وبالمســك تأتيــك الجنــوب اذا لـك الخيـر أم ريـا بثينـة تـنفح ؟[3]

ويقول تارج بالمسك الاحم ثيابها اذا عرفت فيها وبالعنبر الـورد [4]

ويقول ايضا:

كـان فتيت المسك خـالط نشرها تغـل بــه اردانهــا والمرافـق [5]

ويبلـغ تـرف هذه المـرأة ان تطلـب مـن صـاحباتها اتقـاء حـرارة الشـمس باثواب من حرير:

وقالـت لاتـراب لهـا لا زعـانف قصــار ولاكـس الثنايـا ولا ثغـل

اذا حميـت شـمس النهـار اتقينهـا باكسـية الـديباج والخـزذى الخمـل [6]

والملاحظ من خلال الاوصاف التي نعت بها جميل حبيبته انه حـاول ان يجمع في وصفها بين المرأة المثاليـة والمرأة الواقعيـة، وهنـا يظهـر اضـطراب جميـل فـي محاولتـه لتصـوير الحبيبـة التـي جمـع لهـا مـن الصـفات المثاليـة والواقعية، وحتى هذه المرأة الواقعية كان وصالها بعيدا عن الشاعر، ذلك انها محمية بحراسة شديدة:

---

(1) م ز ن 69.
(2) م. ن 76.
(3) م. ن 45.
(4) م. ن 75.
(5) الديوان 142.
(6) م. ن176.

ياليتنـــا والمنـــى ليســـت مقربـــة  انا لقيناك والاحراس قد رقدوا [1]

والشـاعر اراد مـن وراء ذلـك كلـه ان يبـرز هـذه الحبيبـة كـ (افضـل المخلوقات)، ليبين من خلال ذلك ان الوجود الذي يسعى اليه اقرب الى الكمال. لكننا لاحظنا ان هذه الحبيبة كانت في _ اكثر الاحيان _ مجرد طيف يزور الشاعر او صورة خيالية مرتبطة اشد الارتباط بشعوره، كقوله:

امنـك سـرى يـابثن طيـف تاوبـا  هدوءا فهـاج القلـب شـوقا وانصـبا [2]

ويقول:

ألـم خيـالٌ مـن بثينـة طـارق  على الناي مشتـاق الـى وسائق [3]

ذلك لان الشعور كما يصفه (هويلي): ((ليس شيئا يضـاف الـى الصـور الحسية، وانما الشعور هو الصورة أي انها هي الشعور المستقر في الذاكرة، الذي يرتبط في سرية بمشاعر اخرى ويعدل منها، وعندما تخرج هذه المشاعر الـى الضـوء وتبحـث عـن الجسـم فإنهـا تأخـذ مظهـر الصـور فـي الشـعر او الرسم...)) [4]

وحتى مواقف الحب التي ترد عنده كانت عبارة عن ذكريات، وكثيرا مانرى كلمة (تذكرت) ومشتقاتها بارزة في شعره مثل قوله:

ومـا ذكرتـك الـنفس يـابثن مـرة  من الدهر الاكادت النفس تتلف [5]

(1) م. ن59.
(2) م. ن 36.
(3) م. ن 142.
(4) الشعر العربي المعاصر 135.
(5) الديوان 132.

ويقول:

وذكـرت عصـرا يابثينـة شـاقني  اذ فاتني، وذكرتُ شرخ شبابي [1]

ويقول ايضا:

تـذكر انسـا مـن بثينـة ذا القلـب  وبثينـة ذكراهـا لـذي شـجن نصـبُ [2]

وبذلك تتضح لنا تجربـة الشـاعر العاطفيـة التـي هـي عبـارة عن صـياغة فنية استمدت بعض أطرافها من واقعة، وأكثرها من صنع مخيلته الشعرية.

وهكذا نصـل الـى ان المرأة عندهم واقعيـة، وارادهـا واقعيـة ليحقق من خلالها الحياة الأفضـل التـي سـعى لهـا، ولتكون وسيلته لتحديـه المجتمـع ثـم ان الشاعر كان يعيش في الحاضر على العكس من جميل الذي لجـا الـى الماضـي يسـتمد منـه وجـوده بعلاقتـه ببثينـة المثـال والخيـال والطيـف التـي جسـد حبهـا والموت، فهي وسيلته لتحقيق وجوده لذلك جعلها سامية بأبعادها عن الواقع، وعلى الرغم من ان مجتمعه البدوي كانت حرية الاختلاط بين الجنسين فيه قائمة، علـى النقيض من مجتمع عمر الحجـازي الذي كـان مجتمعـا انفصـاليا، لكننا وجدناه يفضل الصورة الخيالية والمثالية على الصورة الواقعية وهذا دليل على ان الشاعر كان يرفض الواقع ويعيش بين الماضي وبين الذي سياتي، في حين ان عمر كان يعيش حاضره، وفضلا عن ذلك فهما قد قصدا الى الفن ليس الا، فحولا المواقف الخيالية الـى صـياغة فنيـة بديعـة جعلتهـا اقرب الـى الواقع منها الى الخيال.

## السعادة واليأس في الحب:

تتضح لنا السعادة واليأس في الحب عند الشـاعرين كليهمـا، فتبـرز عند عمر من خـلال شعر، حيث يشـعرنا بمدى اقبالـه علـى الحيـاة، فرحـه بالحـب، ((فلم يكن قلبه جريحا ولم تكن نفسه كئيبـة، ولـم .. يرَ الحيـاة الالهوا اوسبيلا

(1) م. ن 32.
(2) م. ن 26.

الى اللهو)) [1]، وسعادته تكمن في تحقيق اللقاء بينه وبين المرأة – المنيعة – التي يغامر من اجلها فوصوله اليها دليل على اختراقه كل التقاليد وتحديه لكل العادات، حتى وان لم يفز منها الا بالقليل ولكن وصوله دليل على انتصاره:

ذكر القلب ذكرة أم زيد، والمطايا بالسَّهب الرِّكاب
فاستجنّ الفؤاد شوقاً وهاج الشوقُ حزنا لقلبك المطراب
هجرته وقربته بوعدٍ وتجنّ لهجرتي واجتنابي
ولقد اخرج الاوانس كالحو بعيد الكرى امام القباب [2]
ثم الهو بنسوة خفرات بدن الخلق ردح اتراب
بت في نعمه وباتت وسادى ثني كفٍّ حديثة بخضاب
ثم قمنا لما تجلى لنا الصبح نعفى اثارنا بالتراب [3]

وكيف لايكون سعيدا وقد اتخذ من الليالي غطاء وسترا لتحقيق مغامراته، فكان يختار دائما الأوقات التي تتصف بالهدوء والسكون على غفلة من الرقباء والحراس، فالليل بما فيه من ستر وظلام مكنه من تحقيق ماربه وغاياته، لانه يصعب تحقيق ذلك نهارا، ولعل في ايثاره الليل جانبا اخر يتحدى به التقاليد في غفلة من قوانينها وقيودها التي تفرضها على المجتمع، والظلام كان متنفسة الوحيد وعالمه الذي يشعر فيه بالحرية ذلك انه الوقت الذي يتحرك فيه المرء بدون خوف من مراقبة احد ولخفاء شخصيته، فكيف لايتخذه عالمه وهو يجعله يبيت في سعادة:

(1) حديث الاربعاء 1 /311.
(2) الحو: جمع حواء وهي السمراء الى الحمرة.
(3) شرح ديوان عمر 382 – 383.

فيالــك لــيلا بــت فيــه موســداً  اذا شئت بعد النوم اكرم معصم [1]

(1) شرح ديوان عمر 202.

ويجعله يبيت في نعمه ايضا:

بـت فـي نعمـه، وبـات وسـادى معصـما بـين دملـج وسـوار [1]

ويقول:

فتقضـت ليلتـي فـي نعمـه مـرّة الثمهـا غيـر حصـر [2]

فاللقاء بهذه المرأة والمبيت عندها لايسعدان الشاعر فقط بل ويشعر انه يفخر بنفسه، وكيف لايفخر وهو المغامر الذي لا ترهبه المخاطر والعصاب ولا يقف بجرأته عند حد، فلا مسجد حرام يرده ولاحرمة حج ولا خشية من خليفة، وليس عمر الفرح وحده بهذا اللقاء بل ان النساء اللاتي يلقاهن ايضا سعيدات وفرحات مثله ويتمنين ان يكون ليلهن هذا أشهرا:

سـمون يقلـن: الا ليتنـا نـرى ليلنـا دائمـا اشـهرا[3]

وهذه السعادة التي كانت تغمر عمر، كانت تمر على جميل كلحظات قليلة بل كومضات لايفتا ينعم بها فـ((السعادة التي عاودت الشاعر من خلال التذكر كانت دوما عابرة للغاية، وكان مقدرا لها، انطلاقا من المبدا، الا تدوم طويلا، وليس في الامر بالذات مجال للتوهم))[4]، فالسعادة التي كان يشعر بها بها جميل كانت سعادة مؤقتة ومؤجلة دوما، ذلك انها قائمة على الذكريات وعلى الاماني التي يطمح ان تتحقق في يوم من الايام، تلك الاماني في لقاء يلتقيه مع بثينة:

ألا ليـت ايـام الصـفاء جديـد ودهـرا تـولى يـا بثـين يعـود[5]

(1) م. ن 135.
(2) م.ن 149.
(3) م. ن 174.
(4) الغزل عند العرب 99/1.
(5) ديوان جميل 61.

ويقول:

تمنيت من حبي بثينة اننا  على رمث في البحر ليس لنا [1]

ويقول:

وددت-ولاتغني الودادة-انها  نصيبي من الدنيا وانى نصيبها [2]

((وهكذا فان الشاعر من اجل بضعة ايام، او فصل من الفصول الاربعة على الاكثر، من سعادة وهمية قابلة للتنافس دوما قد عرض اذا للاضطراب سكينة ايامه، وعرض نفسه لاصابات الذكرى المتجددة، وهنا تكمن في نظرنا التضحية الاكثر نصيبا من (العذرية) التي يمكنه ان يقدمها لمحبوبته)) [3].

وفضلا عن ذلك فهو يؤثر الليل ليحقق اللقاء الذي يتمناه، وفي غفلة من الحراس.

ياليتنا والمنى ليست مقربة  انا لقيناك والاحراس قد رقدوا [4]

ويبدو ان هذا الليل قد حقق له من لقاء الحبيبة ما كان يتمناه _ حتى وان كان شعرا _، ولهذا باتت ذكرياته عن هذه الليالي تشعره بالسعادة كقوله:

مازلتُ ابغي الحي اتبع فلهم  حتى دفعت الى ربيبه هودج

فدنوت مختفيا الم ببيتها  حتى ولجت الى خفي المولج

قالت: وعيش اخي ونعمة والذي  لانبهن الحي ان لم تخرج

فخرجت خوف يمينها فتبسمت  فعلمت ان يمينها لم تخرج

فتناولت راسي لتعرف مسه  بمخضب الاطراف غير مشنج

---

(1) ديوان جميل 93.
(2) م. ن 31.
(3) الغزل عند العرب 99/1.
(4) ديوان جميل 59.

فلثمت فاها اخذا بقرونها  شرب النزيف ببرد ماء الحشرج [1]

ولكن هذه السعادة ليست دائمة بل كثيرا ما تتخلها الالام والاحزان والشعور بالياس عند كل من الشاعرين، فعمر المغامر الشجاع لايفلت من لحظات الياس مركزا على الحب ((بوصفه مرضا ادواء له، ولا امل منه، حب صنعه القدر)) [2] فيقول واصفا الحب بانه قضاء وقدر لاحيلة له في رده:

ما انا والحب قد ابلغني  كان هذا بقضاء وقدر [3]

ويقول:

قد لمتُ قلبي واعياني بواحدة  فقال لي: لا تلمني وادفع القدرا [4]

والشاعر كان يتقلب في بعض شعره بين الياس والرجاء، بين الامل والخيبة:

يا ليتني متّ اذ لم الق من كلفي  مفرحا وشاني نحوها النظر [5]

ولعل خيبته في حبه لم تقف عند حدود التجربة العاطفية فقط، بل تتعداها الى ما هو اوسع واشمل، الى خيبة الامل في الحياة، فصوره المتكررة عن يأسه تعبر عن موقفه من الحياة ومن واقعة الذي يعيش فيه:

فواكبدي من خشية البين بعدما  رجوت نوالا من عثيمة ينغع

فقد تركتني ما ألذ لخلةٍ  حديثا، ونفسي نجوها تتطلع [6]

ولهذا وجدناه كثيرا ما يشكو رحيل الحبيبة وابتعادها ولوعة فراقها، وكثيرا ما ترد ألفاظ الغربة والفراق في شعره:

ان الخليط الذي تهوى قد ائتمروا  بالبين ثم اجدوا البين فابتكروا

(1) م. ن: 41-42.
(2) تاريخ الادب العربي: بلاشير، ترجمة: ابراهيم الكيلاني 256/3.
(3) شرح ديوان عمر 148.
(4) م. ن 152.
(5) م. ن 114.
(6) م. ن 186.

بانت بهم غربة عن دالرنل قذف فيها مزار لمحزون بهم عسر

وكنت اكميت خوفا من فراقهم فأصبحوا بالذي اكميت قد جهروا

قد ارسلوا كي يحيوني، فقلت كيف السلام وقد عدى به القدر ؟ [1]

وفراق هذه الحبيبة هو في معناه الاوسع فراق الحياة الماضية التي كان ينعم بها الشاعر وقلقة من الحياة المقبلة عليه، ومن اجل ذلك كثيرا ما وصف هذه المرأة بالغدر وعدم الوفاء اذ لا تبقى على حالة واحدة تجعل الشاعر معها يحسن بالامان،بل تتلاعب بضعفها وقوتها، فتعد الشاعر ولكنها لاتفي بوعودها الا قليلا:

كنا كمثل الخمر كان مزاجها بالماء، لا رنق، ولا تكديرُ

فلئن تغير ما عهدت و اصبحت صدفت فلا بذل ولا ميسور

لا تامنن الدهر انثى بعدها اني لامن غدر هنّ نذير

بعد الذي اعطتك من ايمانها ما لا يطيق من العهود ثبير

فاذا وذلك كان ظل سحابة نفحت به في المعصرات دبور [2]

والمرأة بوصفها رمز الحياة منذ القدم فغدرها دليل على غدر الحياة للشاعر، وان كان قد فاز منها ببعض اللذات، فصور الارتواء من هذا الحب تتضح عنده:

واشقى بعذب بارد الريق واضحٍ لذيذ الثنايا طيب المتنسَّم [3]

(1) م. ن 118 – 119.
(2) شرح ديوان عمر 130 -131.
(3) م. ن 203 .

ويقول:

لـــو ســـقي الامـــوات ريقتهـــا  بعـد كـاس المـوت لانتشـروا [1]

الا ان هذه اللذات تغدو قليلة لما كان يطمح اليه الشاعر ولعل يأسه يتضح في جانبه الاخر من خلال الشيب في راسه بينما يرى المرأة امامه نضرة مشرقة في مقتبل العمر:

غـراء فـي غُـرَّة الشـباب مـن  الحـور اللـواتي يزينهـا خفـر [2]

فالشخصية المحبوبة، قيمة بقدر الحسرة التي توحي بها الى الشاعر، ولكونها جزءا من اجمل فصول حياته [3].فتشعره بان الشباب قد ولى عنه وحل الشيب:

امس شبابك عنا الغضَّ قد حلا  ولاح فـي الـراس شـيب حـل

ان الشـباب الـذي كنـا نـزن بـه  ولى ولم نقض من لذاتـه امـلا [4]

ولى الشباب حميداً غير مرتجع  واستبدل الراس مني شر مابـدلا

شـيبٌ تفـرع ابكـاني مواضحـه  اضحى وحال سواد الراس فانتقلا

ليت الشباب بنـا حلت رواحلـه  واصبح الشيب عنا اليوم منتقـلا

اودى الشـباب وامسـى المـوت  لا مرحبا بمحل الشيب اذ نزلا [5]

(1) م. ن 159.
(2) م. ن 143.
(3) الغزل عند العرب 58/1.
(4) نزن به: نتهم به.
(5) شرح ديوان عمر 361 - 362.

و((يفترض موضوع الشيب، في الظاهر، ان الحبيب لم يشاهد المحبوبة منذ زمن بعيد، وبما انه لم يدرك تصرم الأيام، سواء عن ضلال او حب او بدافع نزوات الذكرى فهو لن يفقه ابدا_ وهنا يستلزم خطؤه زمنا طويلا حتى يتبدد _ انه يستحيل على حبه الذي بعث فجأة ان يقابل بحب مماثل،ففي نظر الشاعر العربي _ ان ليس في الامكان الشعور بحب صادق نحو عجوز مخدوع)) [1].

ومن هنا فالشيب يشعره بمرور الزمن وتقدم العمر وانتهاء مرحلة الشباب والتحسر عليها والتوقف عن اللذات والمغامرات، فحلول الشيب معناه مغادرة الحب، وذهاب الحب يعني حلول الياس وانتهاء الامل واقتراب الموت، لهذا حاول الشاعر رفض هذا الشيب وتمني عودة الشباب.

ولعل هذا الياس الذي ظهر في بعض شعر عمر، نجدده قد رافق جميل في اغلب شعره بل في كله الا قليلا منه كانت لحظات السعادة تمر خطفا _ كما بينا في الصفات السابقة _ فسبب له هذا الياس ايحاءا بعدم تحقق نقطة تلاق بينه وبين بثينه، فهو في حبه كالتائه او المسحور لانه يتطلع ((الى غير متطلع قريب، وترقب دائم لغير مامرتقب محقق، وانتظار يفني الاعمار وطيف يتجلى ولايحل، ويتمثل ولايتجسد، وصراع مع الدهر يهزا من هؤلاء المحبين، يظنون انهم يبلونه فاذا هو يبليهم))[2] وذلك واضح في قوله:

فافذيت عيشي بانتظاري نوالها وأبلت بذاك الدهر وهو جديد [3]

فعاش على امل بوعد من هذه الحبيبة، ويعرف مسبقا انه لن يتحقق، ولكنه في الوقت نفسه لايستطيع ان يرجع عن هذا الحب وعن انتظار الامل المرجو وذريعته في ذلك انه حب يخضع لقدرة اكبر منه فهو قدر محترم وقضاء من الله:

(1) الغزل عند العرب 58/1.
(2) تطور الغزل بين الجاهلية والاسلام 315.
(3) ديوان جميل 63.

فقلت لـه: فيهـا قضـى الله مـاترى  على، وهل فيما قضـى الله مـن ردِّ [1]

بل ان هذا القدر سابق لكليهما:

تعلـق روحـي روحهـا قبـل خلقنـا  ومن بعد ما كنا نطاقا، وفي االمهد [2]

ويحـاول الشـاعر ان يجـد مسـوغا اخـر لياسـه وتعاسـته وستكون الحبيبـة ذريعته الاخرى، تلك الحبيبة التي يعد وصالها بالنسبة له استمرارا في الحياة، لكنها ((تبخل عليه بالوصل وتؤيسه من النيل، وهي قد بعدت وحيل دونها فما بقي فيها مطمع))[3]:

وقـد اياسـت مـن نيلهـا وتجهمـت  وللياس ان لم يقدر النيل امثل [4]

ولقد كثرت اشارة الشاعر الى بخل هذه الحبيبة، ذلك البخل الذي على الرغم من اقترانه بالياس الا انه يدفعه الى الصبر عليها وانتظار عطائها:

ويقلـــن انـــك يـــابثين بخيلـــة  نفسي فداؤك من ضنين باخل [5]

ويقول:

الا انـه ليست تجـود لـذي الهـوى  بل البخل منها شيمة وخلائق [6]

ويقول:

والا فســلها نــائلا قبــل بينهــا  وابخل بها مسئولة حين تسال [7]

(1) ديوان جميل 74.
(2) م. ن 77.
(3) الحب العذري 80.
(4) ديوان جميل 159.
(5) م. ن 180.
(6) م. ن 143ن 143.
(7) م.ن 160.

ويقول:

والا فسلها نائلا قبل بينها وابخل بها مسئولة حين تسال

ويقول ايضا:

انى اليك بما وعدت لناظر نظر الفقير إلى الغني المكثر

يعد الديون وليس ينجز موعدا هذا الغريم لنا وليس بمعسر[1]

فهو لا يقطع الامل من جود هذه الحبيبة ويحاول ان يجد العذر لنفسه دائما:

فيقول:

فما ذكرت الخلان الا ذكرتها ولا البخل الا قلت: سوف تجود[2]

ويقول:

ولست على بذل الصفاء هويتها ولكن سبتني بالدلال مع البخل[3]

ويبدو ان هذه الإشارات التي يذكرها الشاعر يمكن ان تعبر من وجه اخر عن دلالات ابعد واعمق من التجربة العاطفية وحدها بل هي تعبر عن موقف من الجود بشكل كلي، ولذا وجدنا صور الظمأ والعطش والرغبة في الارتواء تتردد كثيرا عند جميل ولعل سبب ذلك يعود الى البيئة الصحراوية الممتدة التي كان يسكنها جميل، تلك البيئة التي يعاني فيها الانسان من الظما فحياته مرتبطة بالماء، والماء هو الاصل في الحياة والاساس في خصوبتها وفي ماينمو فيها من نبات وجاء في قوله تعالى: ((وينزل من السماء ماء فيحي به الارض بعد موتها)) [4] وقوله عز وجل: ((وجعلنا من الماء كل شيء

(1) ديوان جميل 109.
(2) م. ن 63.
(3) م. ن 177.
(4) سورة الروم، الاية 24.

حي)) [1]. وهكذا فقد ارتبط وجود الحبيبة في حياة الشاعر بوجود الماء في بيئته الصحراوية فعد ريقها الماء العذب الذي يسعى لسد ظماه بالارتواء منه:

الم تعلمي ياعذبة الماء انني اظل اذا لم اسق ماءك صاديا [2]

ويقول:

هل الحائم العطشان مسقى من المزن تروى مابه فتريح [3]

ويقول:

مفلجة الانياب لو ان ريقها يداوى به الموتى لقاموا من [4]

ومن هنا كان ((ظما الحبيب على قدر تأجج حبه او غلته، ولكن المحبوبة تبقى سيدة المورد الذي يروي عطشه)) [5]، وهو لا يرتوي ابدا من ظمأه فكل الطرق التي توصله الى هذا النبع مقطوعة فيستمر حرمانه ويستمر ياسه:

وما صاديات حمن يوما وليلة على الماء يخشين العصى حوانى [6]

لو اغب لايصدرن عنه لوجهة ولاهن من برد الحياض دوانى [7]

يرين حباب الماء والموت دونه فهن لأصوات السقاة روانى [8]

بأكثر مني غلة وصبابة اليك ولكن العدو عرانى [9]

---

(1) سورة الانبياء، الاية 30.
(2) ديوان جميل 221.
(3) م. ن 50.
(4) ديوان جميل 105.
(5) الغزل عند العرب 92/1.
(6) الصاديات: العطشى الحواني: منعطفة على الماء رغبة الشرب منه.
(7) اللواغب: جمع لاغبة وهي الضعيفة.
(8) رانية: وهي التي تديم النظر في سكون.
(9) ديوان جميل 201.

وواضح ان تصويره لهذا الياس دافعه الاحساس بان ((الامال تنسرب من يد الامل بعد ان كاد يقبض بأصابعه عليها، وبان ما يرجو من خير يتجاوزه، وهو منه جد قريب الى غيره ممن ليسو في حاجة اليه)) [1]:

على حين ولى الامر عنا عصا البين وأنبتَّ الرجاء المؤمّل

فما هو الا ان اهيم بذكرها ويحظى بجدواها سواي ويجذل[2]

ولذا لا نستغرب ان يصف الشاعر الحبيبة بالغدر، فهي تعد وتخلف، وتعلق المحب بامل مرجو ثم تقطعه، ولا تمنحه شيئا من وعودها:

وكم وعدتنا من مواعد - لو بوأي _ فلم تنجز، قليل غناؤها [3]

وكم لي عليها من ديون كثيرة طويل تقاضيها بطيء قضاؤها [4]

ويقول:

ومن هو ذو لونين، ليس بدائم على خلق، خوان كل امين [5]

ويقول:

ما أنت والوعد الذي تعدينني الا كبرق سحابة لم تمطر [6]

فاحساس الشاعر بغدر الحبيبة هو جزء من احساسه بغدر الحياة وعدم وفائها والواضح في تجاوزه لسن الشباب وظهور الشيب في راسه بحيث اذا ظهر امام الحبيبة ((وقد خضب راسه بالحناء اخفاء لاثار السنين، تعرض لسخرية فظة)) [7]، بينما بقيت بثينة على نضارتها واشراقها فالزمن لم يؤثر فيها، ذلك لانها خارج اطاره فالحب لم يلوعها ولم تعان من جرائه لذا لم يترك بصماته عليها على

(1) في الشعر الاسلامي والأموي: 99.
(2) ديوان جميل 161.
(3) الواي: الوعد الذي يوثقه على نفسه ويعزم على الوفاء به.
(4) ديوان جميل 22.
(5) ديوان جميل 206.
(6) م. ن 109.
(7) الغزل عند العرب 59/1.

الضد من جميل الذي اصابه هذا الحب بالهرم فجعله قريبا من الموت، ولهذا كثرت الاشارة للموت في هذا الحب حتى باتت من خصائصه وهنا يصبح امتداد الزمن مساويا لامتداد الحب الذي يؤدي به الى الياس:

تقـــول بثينـــــة لمـــــا رأت فـــذونا مـــن الشـــعر الاحمـــر
كبـرت جميـل واودى الشـباب فقلـــت: بثـــين الا فاقصـــري
فغَيـــرَّ ذلـــك مـــا تعلميـــن تغيـــر ذا الـــزمن المنكـــر
وانـــت كلؤلـــؤة المرزبـــان بمـــاء شـــبابك لـــم تُعصـــري
قريبـــانِ مربعنـــا واحـــد فكيـف كبـرت ولـم تكبـري [1]

والشيب يزيد من إحساس الشاعر بغربته في هذه الحياة وحنينه إلى الحياة الماضية:

غريـب مشـوق مولـع بادّكـاركم وكل غريـب الدار بالشوق مولـع [2]

ويقول:

غريـب اذا ماجئت طالـب حاجـةٍ وحـولي أعـداء وأنـت مُشهـر [3]

وقد دفعه هذا الياس الى الاستسلام والخضوع، لكنه خضوع فاقد القدرة على التحكم بعقله:

فلو تركت عقلي معي ماطلبتها ولكن طلابيها لما فات من عقلي [4]

ويبدو ان هذا لم يمنعه من الافلات في _ بعض الاخيان _ من هذه الذات المستسلمة التي هي ذاته، ويتمرد عليها، ويرفض هذا الحب لبثينة الذي ترك في سبيله العز وما كان ينعم به والمنزلة الرفيعة:

(1) ديوان جميل 106.
(2) م. ن 118.
(3) م. ن 92.
(4) ديوان جميل 175.

أبيت مع الهلاك ضيفا لاهلها وأهلي قريب موسعون ذوو فضل [1]

اذ قاده هذا الحب الى الذل والمهانة والاحساس فقد حريته واستسلامه للغير كما يقاد الاسير:

الا قاتل الله الهوى كيف قادنى كما قيد مغلول اليدين اسير [2]

ولهذا وجدناه يدعو قلبه لكي يستفيق من ضلاله وجهله:

أفق ايها القلب للجوج عن الجهل ودع عنك جملا، لاسبيل الى جمل [3]

ويقول:

الا من لقلب لا يمل فيذهل أفق فالتعزي عن بثينة اجمل [4]

ولكن رفضه وتمرده هذا كان مؤقتا لايلبث ان يتركه ويرجع الى حالته الاولى حالة الياس والالم، فهذه الوقفات لم تكن سوى ((لحظات تملك وعي عابرة، وحلا زائفا لا ينسجم مع الحب المتعلق به))[5]، فاليأس اصبح جزءا من تجربته الذاتية.

وهكذا نجد ان الاحساس بالياس والغربة صور وردت عند الشاعرين مما يدل على ان هذا الياس يتجاوز تجربتهما العاطفية ليشمل موقفها من الحياة ومن الواقع الذي يعيشان فيه لاسيما بعد ان مرا بحالة اتقلاب مفاجيء في حياتهم بانفتاح الاسلام على الحضارات الجديدة، كل ذلك جعلهما يعيشان في حالة تذبذب وعدم استقرار ومع انتقال السلطة الى الامويين في الشام وحرمان الحجاز منها، وحرمان اهل البادية من الاموال التي كانوا يغدقونها على حواضر الحجاز فضلا عن المحن الصعبة التي عانى منها اهل الحجاز _ منذ مقتل الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) _ وما تعرضت له من حروب

(1) م. ن 177.
(2) م. ن 99.
(3) م. ن 177.
(4) م. ن 159.
(5) سوسيولوجيا الغزل العربي 81.

وفتن كموقعة الجمل وصفين والحرة وكربلاء وحصار مكة أيام الزبيرين، مما ترك اثره على الحياة الحجازية، فامتلأت نفوس الحجازيين بالشجن العميق والاحساس بالفجيعة لفقد من أودت بهم تلك الحروب والفتن[1] كل ذلك طبع حياتهم باليأس والحرمان والحزن العميق، فظهر في شعر هذين الشاعرين فارتبط في شعر عمر باستغراقه في اللهو والمغامرات ومحاولة النسيان، وارتبط في شعر جميل بالفقد والفشل والحرمان في الحب، في حين وجدنا ان عمر لم يستسلم لهذا اليأس والذي رايناه في احساسه بالسعادة، كان جميل خاضعا ومستسلما له لهذا كانت سعادته مؤقتة دوما.

## حالات الحب الأخرى:

سنحاول في هذا المبحث ان نعرف بصور اخرى للحب عند الشاعرين، فالحب عندهم لم يكن وقفا على المرأة فحسب، انما هناك مظاهر اخرى له اتضحت في حبهم لذواتهم، وفي تعلقهم بالطبيعة كالأرض وما من مياه وجبال وصحار ونبات وحيوان، والسماء بكواكبها ونجومها، فضلا عن ظواهر الطبيعة كالليل والنهار والبرق والنار والرياح وغير ذلك مما تشتمل عليه الطبيعة، وعلى الرغم من ان صور الحب وردت عند الشعراء قديما، فان وجودها في شعر عمر وجميل يعد في جانب منه تقليدا فنيا، ولكنها _ بالتأكيد _ تحمل في طياتها معاني ودلالات اعمق تتناسب وموقف الشاعرين وظروفهما ووضعهما النفسي.

### 1- حب الذات:

ان حب الذات موضوع مطروق في الشعر الجاهلي ظهر على شكل فخر، فالشاعر كثيرا ماكان يفخر بذاته وبقومه،كقول طرفة بن العبد مفتخرا بذاته:

اذا القوم قالوا من فتى خلت انني  عنيت فلم اكسل ولم اتبلد

(1) ينظر، في الشعر الاسلامي والاموي: 224 -225.

ولست بحلال التلاع مخافة ولكن متى يسترفد القوم ارفد [1]

ويفخر عمرو بن كثلوم بقومه فيقول:

وايام لنا غر طوال عصينا الملك فيها ان ندينا

ورثنا المجد قد علمت معد نطاعن دونه حتى يبينا

ونحن الحاكمون اذا اطعنا ونحن العازمون اذا عصينا [2]

فاذا انتقلنا الى عمر وجدنا الفخر بالذات والاعجاب بالنفس واضحا في اكثر ابياته التي يظهر الفخر فيها على لسانه هو، او على لسان صاحباته، فقد صور حب صاحباته له كما صور حبه لهن، وبهذا دخل الى عالم المرأة مصورا مشاعرها تجاهه وعواطفها نحوه، محاولا من خلال ذلك ان يبين ان النساء هن اللاتي يطلبنه ويسعين اليه، بل ويبعثن اليه الرسل:

هل من رسول يكمي حوائجنا بحاجةٍ تشتهي الى عُمر

فجاءني ناصح اخو لطف فقال في خفية وفي ستِر

تقول: ان لم نزرك من حذر الكاشح والحاسدين لم تزرِ؟[3]

(1) ديوان طرفه بن العبد: تحقيق وتحليل ونقد: على الجندي 45-46.
(2) شرح القصائد العشر: 392 ، 396، 415.
(3) شرح ديوان عمر 146.

وهو الذي يجشمهم طول السهر:

يـا ابـا الخطـاب مـا جشـمتنا حجـة فيهـا عنـاء وسـهر [1]

بل هو قرة العين وهم النفس فيتمنين الموت اذا فارقهن:

السـت اقـر مـن يمشـي لعينـي وانـت الهـم فـي الـدنيا وذكـرى [2]

وهن اللاتي يطلبن رضاه ورحمته:

عمـرك الله، امـا ترحمنـي ام لنـا قلبـك اقسـى مـن حجـر [3]

ونجد اكثر من ذلك بان يبعثن اليه بالرسائل ويشكون له معاناتهن من حبهم له:

اتـاني كتـاب لـم يـر النـاس مثلـه امـد بكـافور ومسـك وعنبـر

وفـي جوفـه: منـي اليـك تحيـةٌ فقـد طـال تهيـامي بكـم وتـذكري

وعنوانـه: مـن مسـتهام فـؤاده الى هائم صب من الوجد مشعر [4]

وغيرها كثير من الصور تتضح فيها عاطفة المرأة المحبة تجاه من تحب، وبالمقابل من ذلك نجد عمر هو الذي يتدلل وهو الذي يعاتب ويهجر:

للتـي قالـت لجارتهـا: ويـح قلبـي، مـادهي عمـرا ؟

فـيم امسـى لايكلمنـا واذا ناطقتـه بسـرا ؟

أبـه عتبـي فاعتبـه ام بـه صـبر فقـد صبـرا ؟

وارى شـوقي سـيقتلني، وحبيـب الـنفس ان هجـرا [5]

ويظهر اعجاب عمر في نواحي، اخرى من خلال تفننه في وصف ملابسه وعطره وسيفه وحصانه، فملابسه دليل غناه وثرائه، اذ لايرتدي الا

(1) م. ن 152.
(2) م. ن 135.
(3) م. ن 148.
(4) م. ن 150.
(5) م. ن 161 ، 162.

افخر الثياب ولايتعطر الا باجود العطور:

مــن المســبغين رقــاق البــرو  داكســو النعــال فضــول [1]

ويقول:

ورضــاب المســك مــن اثوابــه  مرمــر المــاء عليــه فنضــر [2]

اما الحصان والسيف فهما دليل فروسيته وشجاعته، وعلامة بارزة على جراته، فهما رفيقاه في مغامراته الليلية يتحدى بهما الصعاب ويتجاوز الحراس وقوم الحبيبة:

بينمــا يــذكرنني ابصــرنني  دون قيد الميل يعدو بي الاغر

قلن: تعرفن الفتى ؟ قلن: نعم  قد عرفناه، وهل يخفى القمر ؟[3]

ويقول:

لما اتاني خرجت في لطف  بقاطع الشفرتين ذي اثر [4]

ويقول:

فقلت: ابادیهم فاما افوتهم،  واما ينال السيف ثارا فيثار [5]

ومن شدة فخر الشاعر بذاته نراه لا يظهر في اكثر الاحيان الا راكبا حصانه بينما صاحباته لايظهرن الا وهن على بغالهن:

فلقيتها تمشي بها بغلاتها  ترمى الجمار عشية في موكب [6]

ويقول:

(1) شرح ديوان عمر 176، المسبغين: المطيلين.
(2) م. ن 151.
(3) م. ن 151.
(4) م. ن146.
(5) م. ن99.
(6) م. ن419.

وأجــازت بهــا البغــالُ تهــادى  نحو خبت، حتى اذ اجزن خبتا [1]

بل يبلغ اعجابه حده عندما يصف نفسه على لسان صاحباته واصحابه بـ (الامير)

وهذا الوصف نجده يتكرر كثيرا في شعره، ولعله اراد من وراءه بيان المنزلة الشريفة التي يحتلها وربما تعويض عما في الواقع شعرا:

فأنت ابا الخطاب، غير مدافع،  على أمير ما مكثت مُؤمر [2]

ويقول:

ان كنت ترجو ان تلاقي حاجة  فامكث على الثَّواء أمير [3]

والملاحظ ان حب الشاعر لذاته من خلال تصوير اعجاب النساء به واقبالهن عليه قد حمل بعض الباحثين على وصف شخصه بعدة او صاف تشوه حقيقة شعره، فمنهم من صوره بامتلاكه ((جانب انثوي في طبعه))[4] ووصفه بعض الدارسين بـ(شذوذ العاطفة) و (النرجسية) حيث قال عنه شوقي ضيف: ((فقد انعكست العاطفة عنده ن وشذت هذا الشذوذ الذي حوله من عاشق الى معشوق، فاذا النساء هن اللاتي يطلبنه، واذا هو الذي يدل عليهن، ويختال فعمر هو المتبوع لا التابع، وهو المطلوب لا الطالب، وهو المعشوق لا العاشق))[5]، وقد تابعه في رأيه هذا شكري فيصل [6]، ونحن لسنا مع اراء اراء هؤلاء الباحثين، وان كنا لاننكر وجود مثل هذه الصور في شعر عمر، ولكن ذلك لايعد دليلا على اتهامه بالانوثة والشذوذ، فضلا عن ذلك فان اعجابه بنفسه وحبه لذاته لايعني انه انسان نرجسي، فالنرجسية شيء وحب الذات شيء اخر

(1) م. ن 458.
(2) شرح ديوان عمر 97.
(3) م. ن 130، وينظر: 132، 137.
(4) شاعر الغزل عمر بن ابي ربيعة: العقاد 193/16.
(5) التطور والتجديد في الشعر الاموي 229-230.
(6) ينظر: تطور الغزل بين الجاهلية والاسلام 465-466.

_ وقد وضحنا ذلك سابقا _ [1] فمن حق كل انسان ان يحب ذاته ويفخر بها، ثم ثم ان هذا النوع من الفخر بالنفس كان شيئا مالوفا عند الشعراء منذ القدم، فلماذا لم يتهموا غيره من الشعراء بهذه الاتهامات التي وجهوها اليه؟ بل نجد ان جميلا نفسه اتضحت عنده صور حب الذات واعجاب النساء به، على النحو نفسه الذي وجدناه عند عمر، فالنساء هن اللاتي يتمنين رؤيته ولقاءه:

وهما قالتا: لو ان جميلا عرض اليوم نظرة فرانا
بينما ذاك منهما واذا بي اعمل النص سيرة زفيانا [2]
نظرت نحو تربها ثم قالت: قد اتانا _ وما علمنا _ منانا [3]

بل أن هؤلاء النسوة يعرضن عليه وصالهن لكنه هو الذي يابي ويرفض.

فلرب عارضة علينا وصلها بالجد تخلطه بقول الهازل
فاجبتها بالقول بعد تستر: حبي بثينة عن وصالك شاغلي
لوكان في صدري كقدر قلامة فضل وصلتك او أتتك رسائلي [4]

ويصور إعجاب النساء به راكبا مزهوا على جمله، والجمل رمز للشدة والقوة والصلابة، ويبدو انه أراد ان يربط بين نفسه وبين جمله في هذا الوصف:

بينما هن بالأراك معا اذ بدا راكب على جمله
فتأطرن ثم قلن لها: اكرمية حُييت في نزله

(1) ينظر: التمهيد ص 16 - 17.
(2) النص:السير الشديد، وزفيانا: سريعة.
(3) ديوان جميل 214.
(4) م. ن 178.

فظلنـــا بنعمـــة واتكأنـــا وشـربنا الحـلال مـن قللـه [1]

ويؤكد الشاعر اعجابه بذاته من خلال تصوير النعيم الذي فيه والواضح في ثيابه وعطره:

واذ انـا اغيـد غـض الشـباب اجـر الـرداء مـع المئـزر

واذ لمتـي كجنـاح الغـرا ب تطلـى بالمسـك والعنبـر [2]

ويصـف الشـاعر مغـامرة لـه فـي زيـارة الحبيبـة يظهـر فيهـا فخـره بشجاعته وجرأته وتحديه لقوم الحبيبة:

ولسـت بنـاس أهلهـا حـين اقبلـوا وجـالوا علينـا بالسـيوف وطوفـوا

وقـالوا: جميـل بـات فـي الحـي وقـد جـردوا أسـيافهم ثـم وقفـوا

وفـي البيـت ليـث الغـاب لـولا على نفس جمل والإلـه لا رعفوا [3]

هممت وقد كادت مرارا تطلعت إلـى حـربهم نفسـي وفـي الكـف

وكانت تحيد الأسد عني مخافتي فهل يقتلني ذو رعاث مطرف [4]

ويذكر الشاعر لقاءه بمجموعة من النساء، كاللقاءات التي تحدث عنها عمر، والتي تبرز إعجابه بذاته:

وبيض رعابيب تثني خصورها اذا قمـن إعجـاز ثقـال وأسـوق

غرائـر لـم يلقـين بـؤس معيشـة يجـن بهـن النـاظر المتنـوق [5]

تنضـيت مـن وجـد إلـيهن بعـدما كربن وأحشائي من الهول تخفق

(1) م. ن 188.
(2) م. ن 106، اللمة: الشعر المجاوز شحمه الاذن.
(3) ارعفه: اعجله.
(4) ديوان جميل 134- 135.
(5) المتنوق: المجود المبالغ.

بـذي شـطب قـد اخلـص القـين  له حين تغشيه الكريهة رونق [1]
فمنهن من عض الأنامل خشية  ومـنهن لمـا ان رأتنـي تصـفق [2]

ويظهر اعتزاز الشاعر بنفسه وبمكانته العالية وشدة باسه لمواجهة قوم بثينة والذين هم دونه في المكانة فيبتعدون عن طريقه خشية وخيفة:

فليت رجـالا فيك قد نـذروا دمـي  وهمـــوا بقتلـــي يـــابثين لقونـــي
أرادوا لكيمـــا يقتلـــوني ولأيـــدوا  دمـــي ثـــم ان الواقيـــات تقينـــي
إذا مـا رأونـــي مقـبلا مـن ثنيـة  يقولون: من هذا ؟ وقد عرفوني
يقولون لي: أهلا وسهلا ومرحبا  ولـو ظفـروا بـي سـاعة قتلـوني
وكيـف ولا تـوفى دمـاؤهم دمـي  ولا مـــالهم ذو كثـــرة فيـــدوني[3]

ويقول ذاكرا سيفه دليل شجاعته في ليلة قضاها مع بثينة في خبائها وقد علم بهما أهلها وزوجها:

لعمـرك مـاخوفتني مـن مخافـة  بثين ولا حذرتني موضع الحذر
فاقسـم لا يلفـي لـي اليـوم غـرة  وفي الكف مني صارم قاطع ذكر [4]

ويتضح لنا من كل هذا مدى اعتزاز الشاعر بنفسه وفخره بشجاعته وإقدامه وجرأته وتحديه للكل، ومن ثم فخره بمكانته العالية بين قومه.

وهكذا نرى ان الشاعرين قد صورا في شعرهما إعجاب النساء بهما وإقبالهن عليهما، فنلحظ هنا ان عمر يقول:

وكـن اذا ابصـرنني او سـمعنني  سعين فرقعن الكوى بالمحاجر [5]

(1) ذو شطب: سيف ذو خطوط في متنه.
(2) ديوان جميل 147_148.
(3) م. ن 306_ 307.
(4) ديوان جميل 81.
(5) شرح ديوان عمر 493.

ونجد جميلا يصور لنا المعنى ذاته:

فلما دخلن الخيم سدت فروجه بكل لبان واضح وجبين [1]

واذا كان عمر يفتخر بانه من افضل قبيلة من قبائل قريش واعلاها منزلة وعزا فيقول:

واني لها من فرع فهر بن مالك ذراه وفرع المجد للمتوسم [2]

فان جميلا يقول:

انا جميل في السنام الاعظم الفارع الناس الاعز الاكرم

احمى ذمارى ووجدت اقرمي كانوا على غارب طود خضرم

اعيا على الناس فلم يهدم [3]

ويبدو ان فخرهما بذاتيهما حمل غاية اخرى وهي تسليط الضوء على المنزلة العظيمة التي يحتلها قوم كل منهما، فالفخر هنا تجاوز الذات الى الفخر القبلي، ويتضح فخرهما بقومهما في قول كل منهما، اذ يقول عمر:

فكم من ناصح في ال نعم عصيت وذي ملاطفة نسيب

فهلا تسالي افناء سعد وقد تبدو التجارب للبيب

سبقتنا بالمكارم واستبحنا قرى ما بين مارب فالدروب

ونحن فوارس الهيجا إذا ما رئيس القوم اجمع للهروب

ويمنع سربنا في الحرب شم مصاليت مساعر للحروب

ويامن جارنا فينا، وتلقى فواضلنا بمحتفظ خصيب

(1) ديوان جميل 204.
(2) شرح ديوان عمر 200، فهر بن مالك: قبيلة من قريش، والمتوسم: الذي يحاول ان يعرف الناس.
(3) ديوان جميل 196.

ولـو سـئلت بنـا البطحـاء قالـت هـم أهـل الفواضـل والسـيوب
ويشرق بطن مكة حين نضحي بـه ومنـاخ واجبـة الجنـوب [1]

ويقول جميل:

فـان تسـالي يـا بـثن عنـا فاننـا لنا المجد قدما والعديد المضعف
لنا سابقتان: الملك والعز، والندي قـديما، وفـي الإسـلام مـايعنف
إذا انتهـب الاقـوام مجـدا فإننـا لنـا معرفـا مجـد وللنـاس معـرف
فما سادنا قوم ولا ضامنا عدي إذا شـجر القـوم الوشـيج المثقـف
لنـا حومـة يحمـي الحـريم بعزهـا عديـد الحصـى، لـم يحصـها
تـرى النـاس ماسـرنا يسـيرون وان نحن اومانا إلى الناس وقفوا
برزنـا واصـحرنا لكـل قبيلـة باسـيافنا اذ يوكـل المتضـعف[2]

ولعلنـا نلاحـظ هنـا ان القصـيدتين كلتيهمـا عاطفيـة إلا اننـا نجـد الفخرالقبلي بالقوم قد اتخذ مكانا بارزا في موضوع القصيدتين، فالشاعران كلاهما قد ربطا بين الغزل والفخر، ولعلهما ارادا من خلال الفخر بشجاعة قومهما وبعزهما ان يقولا انهما الاسياد والامراء بل هم أصحاب السيادة والحق في الملك، فمنذ القدم كان الملك والعز لهم، ولن يقبلوا الان ان يسودهم احد، ولن يحتملوا الظلم من احد، فنفسهم الابية الحرة وعزهم يمنعهم من ذلك وهذا واضح في قول عمر:

فـبعض البعـاد يـا اثيـل، فـانني تـروك الهـووى عـن الهـوان
أبـي لـي عرصـي ان اضـام حسـام وعـز مـن حـديث وأول

(1) شرح ديوان عمر 379-380.
(2) ديوان جميل 137-138، واصحرنا: برزنا.

نقود ذليلا من نعادي، وقرمنا أبي القياد مصعب لم يذلل[1]

وقول جميل:

وقد ابقت الايام مني على العدى حساما إذا مس الضريبة يفصل

ولست كمن ان سيم ضيما ولا كامري ان عضه الدهر

ويقول:

اقود من شئت، وصعب لم اقدا[3]

وهنا يتمثل التحدي غير الصريح (للسلطة) التي نقلت الحكم من الحجاز إلى الشام، عند كل من الشاعرين، كما يتضح رسوخ بعض المفاهيم الجاهلية لديهم، والمتمثلة في الفخر والانساب والقبيلة والاجداد، وهي من المفاهيم التي انكرها الإسلام بل ورفضها، وذلك واضح في قوله عز وجل ((يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير))[4].

## 2- حب الطبيعة:

احتلت الطبيعة مكانة بارزة في شعر عمر وجميل لما وجدوا فيها من ملاذ ومهربا من الواقع عندما يشتد تازمه فتصبح عندئذ عالما مثاليا يسوده الهدوء، وتنسحب عليه الدعة، لا يوجد فيه إلا الضوء والنقاء والحب، تسري فيه شفافية الروح التي تعد معادلا مثاليا لكل ما يفتقده الشاعر المثقل قلبه

(1) شرح ديوان عمر 371-372.
(2) ديوان جميل 161، وينكل: ينكص.
(3) م. ن. 57.
(4) سورة الحجرات، الآية 13، ويعود سبب نزول هذه الآية ان اعجاب كل قبيلة بفضائلها وتفضيل قومها على غيرهم كان فاشيا في الجاهلية... فجاءت هذه الاية لتأديب المؤمنين على اجتناب ما كان في الجاهلية لاقتلاع جذوره الباقية في النفوس بسبب اختلاط طبقات المؤمنين بعد سنة الوفود اذ كثر في الإسلام تفسير التحرير والتنوير: سماحة محمد الطاهر ابن عاشور 16/ 258.

بالمرارة، نتيجة للصور الحزينة الموجودة في مجتمعه[1].

**أ- الحيوان**

يبرز التعلق بالحيوان ووصفه عند الشاعرين كليهما، ويبدو انه قد احتل مكانة ليست بالقليلة من نفسيهما وشعريهما، وأول حيوان يطالعنا في شعريهما هي الناقة، التي يعد وجودها موازيا لوجود الشاعر في رحلته الشعرية، ومنذ القدم احتلت الناقة مكانا بارزا في الشعر فاكثر الشعراء من وصفها لكونها تمثل نفسية الشاعر، والناقة بوصفها (سفينة الصحراء) فهي دليل الرحيل الدائم والسفر المستمر، فضلا عن كونها علامة على تحمل المشاق والصعاب، اذ هي رفيقة الشاعر في رحلاته وسفره لكل ما يصيب الشاعر يصيبها، ويصف عمر ناقته التي رافقته في مغامرة ليلية، فيقول:

وقمت إلى عنس تخون نيها ... سرى الليل حتى لحمها متحسر

وحبسي على الحاجات حتى ... بقية لوح أو شجار مؤسر

وماء بموماة قليل انيسة ... بسايس لم يحدث به الصيف محضر

فقمت إلى مفلاة ارض كانها ... إذا التفتت مجنونة حين تنظر

تنازعني حرصا على الماء ... ومن دون ما تهوى قليب معور[2]

محاولة للماء لولا زمامها ... وجذبي لها كادت مرارا تكسر

فلما رايت الضر منها وانني ... ببلدة ارض ليس فيها معصر

قصرت لها من جانب الحوض منشا ... جديدا كقاب الشبر أو هو اصغر

إذا شرعت فيه فليس لملتقى ... مشافرها منه قدى الكف مسار

(1) ينظر: التصوير الفني في شعر محمود حسن إسماعيل: مصطفى السعدني 57.
(2) القليب: البئر، المعور: قد افسد أي غار ماؤه.

ولا دلو إلا القعب كان رشاءه إلى الماء نسع والاديم المضفر[1]

فسافت، وما عافت، ومارد عن الري مطروق من الماء اكدر[2]

والملاحظ هنا ان رحلة الناقة صعبة ومتعبة وقد كلفتها من المشقة ما اتضح على جسمها من النحافة والضعف والارهاق بل اثر على نفسيتها فكانت كالمجنونة ((وكلمة مجنونة تشير إلى ان الناقة لم تكن تتصرف بوعي، فهي متهالكة على الماء... تريد ان تلقي بنفسها في القليب المعور الذي فسد ماؤه، ولولا كبح عمر للناقة لسقطت به وتكسرت... ولهذا كان الماء في مكان معمور يشكل خطرا على حياة الناقة لو تركت لرغبتها وشربت منه كما تشاء، فهو اسن والناقة تعبة))[3]، والشاعر يصف لنا ناقته بكل حب وبكل وضوح وكانه وكانه يصف نفسه من خلالها فـ ((الكلام عن الناقة تصوير للجانب الاخر من نفسه، انه صدى لروحه العليلة، وما وصف الناقة سوى تجاوب نفسي لوصف اثر رحلة صاحبته، وبيان رغبته ومطعمه، فالناقة وصبرها فيه تلويح بصبره على ما حدث، وأدى إلى ما أدى إليه)) [4]، فقدم لنا لوحة موازية لمغامرته التي كلفته المشاق والصعاب، لذا هو يشارك ناقته في النحافة، وفي السفر الدائم عبر الفلوات فيقول واصفا نفسه:

رات رجلا: أما إذا الشمس فيضحي، واما بالعشي فيخصر[5]

اخا سفر، جواب ارض، تقاذفت به فلوت، فهو اشعث اغبر

قليل على ظهر المطية ظله سوى ما نفي عنه الرداء المحبر[6]

(1) القعب: القدح الذي يروي الرجل.
(2) شرح ديوان عمر 101-103.
(3) قراءة ثانية في بعض جوانب رائية عمر بن أبي ربيعة: إبراهيم موسى سنجلاوي، مجلة مجلة مؤتة للبحوث والدراسات، المجلد 2، العدد 1، 1987، الأردن 81-82.
(4) براعة الاستهلال في فواتح القصائد والسور: محمد بدري عبد الجليل 46.
(5) يضحى: يظهر للشمس ولا يستتر منها، ويخضر: إذا اصابه البرد والمه.
(6) شرح ديوان عمر 94.

وكلاهما – الشاعر والناقة – يعاني من عطش شديد ورغبة في الارتواء، الناقة من الماء والشاعر من نعم، ونتيجة للمخاطر التي تحيط بالماء والتي تؤدي إلى الموت والهلاك في حالة الناقة، وللتقاليد الاجتماعية المفروضة على الشاعر والتي تشكل ضغطا عليه جعلت ارتواءهما اعني – الشاعر والناقة – محدودا بحيث لا يشكل خطرا عليهما، وواضح ان الشاعر قد ربط بين نفسه وناقته في محنتهما ربطاً جميلا.

أما عند جميل فنجد ان الناقة تحتل مكانا مهما أيضا في شعره، ذلك ان وصول الشاعر إلى غايته – الحبيبة – لا يكون إلا على ناقة كريمة الأصل وسريعة:

وقد حال اجبال المقطم دونها ... قذو النخل من وادي نطاق فتعنق

وحالت دروء التيه بيني وبينها ... وركن من الاجيال ابيض اعنق

فلا وصل إلا ان تقرب بيننا ... مبينة عتق ذات نيرين خيفق

زوره اسفار إذا حط رحلها ... رايت بدفيها تباشير تبرق

إذا ما اكتست نيا مخيلا فانها ... رهينة بيوت من الهم يطرق

جمالية نرمي بها قفرة ... لاصدائها بعد العشية منطق

يبذ العتاق الناجيات ذميلها ... ويهلكن في موضوعها حين تعنق

لها عين ثور في حجاج كانها ... إذا ضمها الانساع وقب محلق[1]

وضبعان موران في صعدائها ... إذا جعلت من صهيب الحر[2]

(1) الاتساع: وهو سير أو حبل عريض طويل تشد به الرحال، والوقب: نقرة في الصخرة الصخرة التي فيها الماء.
(2) الضبع: العضد، موار: متحرك..

لهـا حـارك فـوق الجـران تمـده إذا اسـتن ال الامعـز المترقـرق[1]

واتلـع نهـاض إذا عجسـت بـه مـع /5ـــفيـه عـزة وتطـرق

اضرت بها الحاجات حتى كانما الـح عليهـا جـازر متعـرق[2]

فهذه الناقة كثيرة الاسفار حتى بلغ بها التعب حده فظهر على جنبيها من أثاره، إلا انها مع ذلك صلبة وقوية كالجمل حتى فاقت النجائب في سرعتها فهي رفيقة الشاعر في قطع الصحاري وتحمل الحر الشديد، فأضرت بها كثرة الحاجات حتى بدت لمن يراها وكأنما قد الح عليها الجازر فنزع ما عليها من لحم ((ويمكن ان نلاحظ بيسر ان الشاعر قد عاد إلى طريقته السالفة في الحديث عن نفسه، اعني عاد إلى ناقته يخلع عليها مشاعره وهواجسه ويجعلها مجليا صافيا نقيا ترتسم عليه صورة وجهه المنكود)) [3]، فالناقة عبرت عن نفسية الشاعر، وعكست تطلعاته نحو مبتغاه ورحيله المستمر وتعبه ورغباته والتي وضحها في الابيات الاتية من القصيدة نفسها:

انائـل للـود الـذي كـان بيننـا نضـا مثـل مـا ينضـو الخضـاب

انائـل والله الـذي انـا عبـده لقد جعلت نفسي من البين تشفق

انائـل مـا للعـيش بعـدك لـذة ولا مشـرب إلا الشـمال المرنـق

انائـل ماتنـاين إلا كـانني بـنجم الثريـا – مانايـت- معلـق[4]

فالشاعر قد وفق بين حاله وحال ناقته في رحلته للوصول إلى الحبيبة، وهكذا نجد ان الناقة عبرت عن نفسيهما وان السفر المستمر لكليهما دليل على عدم استقرارهما، يجعله تعويض لما يشعران به من يأس تجاه الواقع، ولا

(1) الحارك: اعلى الكاهل، والجران: مقدم العنق، واستن: تردد.
(2) ديوان جميل 146-147.
(3) الرحلة في القصيدة الجاهلية: وهب رومية 180.
(4) ديوان جميل 148-149.

ينسى كلاهما ان يصورا ويصفا ما يقابلهما أثناء الرحلة من وضوح الطريق أو ظلامه، والصحراء التي يقطعانها في سهولتها ووعورتها وجبالها ووديانها فضلا عن عيون الماء القليلة التي تشرب منها الناقة، ومن الواضح انها كانت مشاهد قريبة من الواقع استمدها الشاعران من واقعهما وقد تدخل خيالهما لاعادة تشكيلها وتوظيفها لتعبر عن تجربتها ورؤيتهما الفنية لكل ما يحيط بهما.

ونجد الارتباط بالحمام يرد عند كليهما، وقد ارتبطت صورة الحمام منذ القدم بدلالة الحزن والفقد[1] فذكره في الشعر دلالة على فقدان شيء عزيز عزيز على الشاعر، يقول عمر:

يقولون لي: اقصر ولست بمقصر ... وحبك ياسكن الذي يحسم الصبرا

على الهائم المشغوف بالوصل ... حمام على افنان دوحته وترا

ثلاث حمامات وقوع، إذا دعا ... رددن إليه الحزن اذ هيج الهدرا

بصوت حزين مثكل متوجع ... ونفس مريض القلب اورثته

الملاحظ هنا ان الشاعر يورد ذكر الحمام بعد ان طلبوا منه الكف عن هذا الحب وهو رافض لطلبهم، فهذا الحب هو الذي يقطع الصبر وينهيه، وهو متعلق بهذه الحبيبة ومشغوف بوصلها كالحمام المتعلق على اغصان الشجرة العظيمة، فكلما دعا الشاعر بحبه ارجعن إليه الحزن وهيجنه لفقد الحبيب بصوت هديرهن، والشاعر هنا عقد مقارنة بين صوت الحمام الحزين لفقد اليفه والمتوجع وبين نفسه المتالمة وقلبه المثكل الحزين لفقد الحبيبة التي ليس له منها إلا الذكريات، فصوت الحمام الحزين ارجع إليه هذه الذكريات فاثار

(1) ولعل ذلك يعود إلى (القصة الخرافية التي تحكي ان فرخ حمام يدعى هديلا فقد على عهد طوفان نوح فكل الحمام يبكي عليه ويناديه). الصورة في الشعر العربي: علي البطل 81.

(2) شرح ديوان عمر 126.

احزانه واشواقه.

ويقول جميل:

ومالي لا ابكي وفي الايك نائح وقد فارقتني شخته الكشح والخصر

ايبكي حمام الايك من فقد الفه واصبر؟ مابي عن بثينة من

(1)

ويقول في موضع اخر:

ظللت ومستن ممن الدمع هامل من العين لما عجت بالدار ينزف

أن هتفت ورقاء ظلت سفاهة تبكي على جمل لورقاء تهتف؟

وقد نزح الدمع البكاء لذكرها من العين اغراب تفيض وتغرف[2]

(2)

والشاعر في الموضعين كليهما يذوب رقة لسجع الحمام لما يبعثه في نفسه من ذكريات وأشجان، ففي الموضع الأول يبكي لان الحبيبة فارقته وبعدت عنه، ويجعل بكاء الحمام بموازاة حالته، فكما ان الحمام لا يصبر على فقد الفه فيبكي حزنا والما لفراقه كذلك الشاعر لا يطيق صبرا لفراق حبيبته، وفي الموضع الثاني نراه يبكي لسماع صوت الحمامة وهي تذكره بدياره التي أصبحت قفرا بعد ان غادرتها الحبيبة، فحوادث الدهر ومصائبه قد فرقت بينهم، لذلك فهو دائم البكاء كلما هتفت الحمامة لذكرى هذه الديار.

ولعل في استخدام الحمام رمزا لأشواق غامضة تتجاوز الحنين، والفقد الشخصي ال ما هو اعم، فعمر حين يحن إلى حياة جديدة ويفتقدها والى مجد اجداده وعزهم، وجميل يفتقد حياته البدوية القديمة ويحن اليها، فكل من الشاعرين نقل لنا رؤيته الفنية الخاصة وأحاسيسه عبر الحمام.

ويرد ذكر الغراب عندهما، والغراب – كما هو معروف – دليل شؤم وفراق وغربة، ولكن توظيفه للتعبير عن التجربة اختلف عند الشاعرين

(1) ديوان جميل 102.
(2) ديوان جميل 132.

كليهما، فعمر قد وظفه للاخبار عن فراق احبته فيقول:

نعــق الغــراب ببــين الــدملج  ليـت الغـراب ببينهـا لـم يـزعج

نعـق الغـراب ودق عظـم جناحـه  وذرت به الارياح بحر السمهج[1]

ونرى ان جميلا قد افاد من هذه الدلالة وربط بين حاله وحال الغراب في البين والغربة، وذلك واضح في قوله:

إلا يـاغراب البـين لونـك شـاحب  وانـت بروعـات الفـراق جـدير

فـان كـان حقـا مـا تقـول فاصـبحت  همومـك شـتى والجنـاح كسـير

ودرت باعــداء حبيبــك فــيهم  كمـا قـد ترانـي بالحبيـب ادور[2]

## ب- الظواهر الطبيعية:

استعان الشاعران بظواهر الطبيعة كالليل والنجوم والشمس والقمر... الخ لايصال تجربتهما للمتلقي عبر هذه الظواهر، فالليل يثير فيهم الاشجان ويدفع للاحساس بالاسى، يقول عمر:

فالليــالي إذا نأيــت طــوال  واراهــا، إذا دنــوت، قصــار[3]

ويقول جميل:

اعــدُّ الليــالي ليلــة بعــد ليلــة  وقد عشت دهرا لا اعدّ الليـاليا[4]

ويتخذ عمر من النجوم دليلا وهاديا على حلول الليل، فغروب النجوم مرتبط بزيارته للحبيبة في غسق الليل، لذا يبعث غروبها في نفسه السعادة، فيقول:

(1) شرح ديوان عمر 487.
(2) ديوان جميل 94.
(3) شرح ديوان عمر 140.
(4) ديوان جميل 224.

نـام صـحبي وبـات نـومي عسيرا ارقـب الـنجم موهنـاً ان يغـورا[1]

في حين ان النجوم عند جميل – وخاصة الثريا – كانت دليلا عل عدم تحقق مبتغاه:

أحقــاً عبــاد الله ان لســت لاقيــا بثينــة أو يلقــى الثريــا رقيبهــا[2]

وهنا تختلف رؤية الشاعرين في نظرتهما للنجوم، وللسحاب والمطر منزلة مهمة عند كليهما، اذ يمثلان دليلا على الحياة والخير والنماء، يقول عمر:

وكــل مســف لــه هيــدب إذا مــا حــدا رعــده امطــرا[3]

والشاعر هنا يتمنى قدوم السحاب وهطول المطر على ديار اصبحت موحشة وخالية من ساكنيها، فنراه يقول في البيت الأول:

لمــن طلــل مــوحش اقفــرا فاصــبح معروفــه منكــرا[4]

والمطر يعيد الحياة اليها، وبالتالي يعيد اليها ساكنيها، وهذا ما يتمناه عمر، وقيمة الديار تأتي من قيمة ساكنيها، حيث يقول:

وقــد كنــت القــى بــه شــادنا قطـوف الخطـأ ناعمـاً احـورا[5]

فتمني عودة الحياة لهذه الديار يرجع في الأصل لتمني عودة الحياة الماضية السعيدة التي كان يعيشها فيها.

وكذلك الحال عند جميل فنراه يقول:

واكثــر قــولا والحبيــب موكــل سـقى أهـل جمـل حيـث امسـوا

(1) شرح ديوان عمر 136.
(2) ديوان جميل 31.
(3) شرح ديوان عمر 147.
(4) م. ن 146.
(5) م. ن 147.

اجـش هـزيم الرعـد دان ربابـه  لـه هيدب جم العثانيـن رجـح[1]

ويرد ذكر الرياح في شعرهما، لكن الملاحظ ان احساس الشاعران بها يختلف فيقول عمر:

الـريح تسـحب اذيـالا وتنشـرها  يـاليتني ممـن تسـحب الـريح

كيمـا تجـر بنـا ذيـلا فتطرحنـا  علـى التـي دونهـا مغبـرة سوح[2]

فيتمنى ان تسحبه الريح لتوصله الى فتاته

ويقول جميل:

ايـا ريـح الشـمال أمـا ترينـي  اهـيم وانني بـادي النحـول

هبـي لـي نسـمة مـن ريـح بـثنٍ  ومنـي بـالهبوب إلـى جميـل[3]

ويقول في موضع اخر:

يـذكرنيها كـل ريـح مريضـة  لهـا بـالتلاع القاويـات وئيـد[4]

فهذه الريح تشفيه لأنها قادمة من بثينة، وهكذا نرى ان عمر يتمنى ان يكون جزءا من هذه الريح لتاخذه إلى صاحبته بينما جميل يتمنى نسمة منها لقدومها من عبد الحبيبة فتبعث في نفسه الامل، أما الرق فيحمل معه تباشير الخير، يقول عمر:

يـابرق ابـرق مـن قريبـة  مسـتكفاً لـي نشاصـه[5]

ذا هيـدب دان يَحـنَّ  إلـى مناصـفة قلاصـة[6]

ويقول جميل:

(1) ديوان جميل 48، العثانين: جمع عثنون وهو أول المطر.
(2) شرح ديوان عمر 489.
(3) ديوان جميل 183.
(4) م. ن 65 .
(5) النشاص: السحاب المرتفع بعضه فوق بعض.
(6) شرح ديوان عمر 469-470.

على انني بالبرق من نحو إذا قصرت عنه العيون بصير[1]

ويقول:

ولولا ابنة العذرى مابتّ موهنا لبرق عنا من نحوها يتهلل[2]

فهذا البرق ((هو الذي يعذبه ويضنيه فيبيت له ساهرا يرقبه، وهو البرق الذي يعده ويمنيه، انه نبوءة خير فبعده يكون المطر مانح الخصب والحياة في الصحراء العربية)) [3]، وقد اتضح ذلك عند عمر، وعند جميل الذي يذكره بالحبيبة:

وحتى النار لها نصيب من احاسيس الشاعرين، يقول عمر:

لمن نار قبيل الصبح عند البيت ماتخبو

إذا ما أُوقدت يلقى عليها المندل الرطب[4]

وهي عند جميل مرتبطة ببثينة إذا تذكره بايامه معها، يقول:

لاحت لعينك من بثينة نار فدموع عينك درة وغرار[5]

ونجد الرياض بما فيها من نبات وزهر وحياة قد ذكرها الشاعران ولكنها وردت بشكل موسع عند عمر أكثر من جميل، فيقول عمر:

لا انس طول الحياة ما بقيت لطيبة روضة لها شجر[6]

فهذه الروضة جزء من ديار عزيزة عليه، وعدم نسيانها دليل على شدة تاثيرها في نفسه وانطباعها في ذاكرته، ونراه في موضع اخر يتحدث عن فتاة شابه ثم يورد وصفا لروضة أثناء حديثه، فكانما أراد ان يطابق في

(1) ديوان جميل 94.
(2) م. ن 157.
(3) الرحلة في القصيدة الجاهلية 280.
(4) شرح ديوان عمر 486.
(5) ديوان جميل 84.
(6) شرح ديوان عمر 142.

الوصف بين هذه الفتاة اليانعة والروضة المزهرة:

إنـــي تـــذكر زينـــب القلـــبُ وطـلاب وصـل غريـرة شـعبُ

مـــا روضـــة جـــاد الربيـــع لهـــا موليـــة مـــا حـــولها جـــدب

بالـــذ منهـــا اذ تقـــول لنـــا سـرا: اسـلم ذاك أم حـــربُ؟[1]

ويربط جميل بين الرياض والحبيبة، فالحبيبة بالنسبة إليه كالروضة التي سقاها مطر الربيع فانبتت نبتا طيب الرائحة:

يـــــاخليلي ان أم جســـــير حـين يـدنو الضـجيع مـن غللـه

روضـــة ذات حنـــوة وخزامـــى جـاد فيهـا الربيـع مـن سـبله[2]

فنرى ان رؤيتهما بالنسبة للرياض متفقة، ونجد ذكرا لاماكن معينة ترد في شعرهما، يقول عمر:

الـم ببطحـاء الكديـد وصـحبتي هجود، فزاد القلب حزنا وشوقا[3]

(1) شرح ديوان عمر 387.
(2) ديوان جميل 188.
(3) شرح ديوان عمر 444.

ويقول:

إلا يـــــا حبـــــذا نجـــــد ومـــــن اســـــكنها أرضـــــا[1]

ويقول جميل:

وإذا حللـتِ بـذي الشـباك ودوننـا علـم المريـر وحزنـه وتعـار[2]

ويقول:

حلفت لهـا بالراقصـات الـى منـى ومـا سـلك الاخـراب أحـزاب[3]

وغيرها كثير من أسماء الأماكن الواردة عندهما ((غير ان قيمتها لاتكمن في دلالتها الجغرافية بقدر ما تكمن في دلالتها النفسية وما تخلفه في النفس البشرية من الاثر العميق))[4]، فكل موضع له مكانة خاصة من نفس الشاعر حاملا معه ذكريات عديدة ومختلفة.

والملاحظ ان الشاعرين يتعلقان بكل ما يحيطهما من ظواهر طبيعية ويسبغان عليها مشاعرهما الخاصة ليوصلا للمتلقي احاسيسهما ومعاناتها من خلال هذه الظواهر وعلى الرغم من اختلاف رؤيتهما الفنية لبعضها إلا ان الظواهر – على الأكثر – كانت رموزا للحبيبة الغائبة وللسعادة والالم وللحياة الماضية التي عاشها عمر بفرحة وطمأنينة، ولحياة جميل بين قومه قبل ان ينفي ويطارد من السلطان، فكل شيء احبه الشاعران وتعلقا به له ارتباط وثيق بنفسيهما وبالحياة بشكل اعم.

(1) م. ن 460.
(2) ديوان جميل 85، وكل الاسماء المذكورة مواضع.
(3) ديوان جميل 107، الراقصات: الابل المسرعة، اخراب عزور: موضع.
(4) جميل بثينة والحب العذري: خريستو نجم 153.